«الشاعر.. وجذوة النار»

الدكتورة نجاح العطار

تحية

السيدة وزيرة الثقافة والإرشاد القومي
للشاعر سليمان العيسى في حفل تكريمه
إثر فوزه بجائزة اللوتس

أيها الأصدقاء

أن نكرم الشاعر ، يعني أن نفيه بعض حقه ، لكن كلمة الوفاء ، هنا ، تتواضع حتى كأنها لم تكن معناها ، ذلك أن العطاء أكبر ، ولا قياس ، وكأننا نقول : صوت فيروز ، وكذا نسق من الأوسمة .

لا .. الشعر أثمن ، والصوت أثمن ، والكلمة أثمن ، وكل عطايا الارض الى فناء ، الا عطاء الموهبة فالى بقاء .

نحن ، هذا اليوم ، لن نفعلها أعجمية ، كسا السجدة مع أبي نواس ، فالوقفة ، في شموخ القلم والسيف ، وقفة صنوها الزهو ، والكلم ، بعد ذلك ، تهاويل ، لايبلغ مدعاها أن يرقى جبهة الشمس ، حيث الشعر هناك جذوة نار يعبث بها طفل اله مدلل .

ولست ، ولن أكون ، في المعتذرين عجزا ، فمن لايملك ، حتى في النثر ، بوحة شعر ، عليه ان يتنحى ، وقديما ، للعارفين قدراتهم ، كان الصمت جميلا ، وسيبقى جميلا . انما أيأس في نثري ، أن أطاول شعرا ، بعض صفاته أنه روح نبوءة ، وبعضها الآخر ايماءة طرف قبل اللقاء الاول .

ماهم ! المحتفى به صديق ، وفي الصداقات ود غفور ، ولئن أعوزنا أن نكتب في المتن ، فلا أقل من أن نشارك في العنوان ، وهذا قولي ، كما ترون ، جهد هامشي حاشية على طرف سفر من الشعر طويل طويل ، لانملك حياله الا الدعاء الى السماء بألا تعاقبنا لاننا قصرنا في تكريم شاعر ، حتى جاء من يذكرنا بذلك ، فانتبهنا واحتفلنا ..

انني أعترف : الاهمال قتل ، ونريد ألا نهمل كي لانقتل ، غير ان ولادة شاعر ، ونضجه ، ورحيله ،

لايلقى منا ماينبغي ان يلقى من تكرمة ، وهذا هو سبب الدعاء الى السماء ألا تعاقبنا ، رغم اننـا ، في هذا القطر العربي الصغير ، وبرعاية الرئيس حافظ الاسد وتشجيعه ، قد أقمنا للشعر أعراسا ، وللشعراء منابر ، وللمبدعين وسائل ، أقلها ان شاعرا او مبدعا لم يضار بيننا ، ولم تبق ابياته حبيسة صدر او دفتر ، ولم تسيّج الكلمة وتبنى لها محاجر،ذلك ان الكلمات، والاشعار ، والانغام ، وكل الفنون ، تخترق الاسيجة ولو كانت بسماكة جدار الصين الكبير ، وقد جرب القياصرة يوما مع بوشكين ، لعبة التدجين ، ثم لعبة الموت ، لانه قال : « يا أبناء الحظ الاعمى ، ياطغاة العالم ، ارتعدوا » فلما سقط ، في المبارزة المدبرة ، قتيلا ، طلع ليرمنتوف بقصيدته الشهيرة « مـوت شاعر » صارخا « اقتصوا من الجريمة ، كي لاتخجل الاجيال من جبن ابنائها » وتصور ليرمنتوف السماء غاضبة اذا لم يتم هذا القصاص ، وانهـا ترد على صلواتهم قائلة : « لتغض ينابيع أغنياتكم ، لانكم عجزتم عن تكريم شاعركم ، ولن ارسل لكم شاعرا آخر بعد اليوم » .

أيتها السماء ! اشهدي اننـا نكرم شعراءنا ، فأرسلي لنا الكثير من الشعراء . واذا كنا في هذا اللقاء ، نكرم الشاعر العربي الكبير سليمان العيسى ،

فاننا من خلاله ، نكرم كل الشعراء ، ومن ديوانه الشعري نكرم كل الدواوين الشعرية ، ومن وقفته الرائعة طوال نصف قرن ، مع النضال والفداء ، نكرم كل الشعراء والادباء الذين ناضلوا وفادوا .. حتى ان تاريخنا ، عنـد كتابته مستقبلا ، سيكون الشعر مرجعـه لاتقاريـر المستشاريـن او تصانيف المدونين ..

ولقد يكون علي ان اصارحكم انني احببـت شعر سليمان العيسى ، وحفظته ، وانشدته ، واعجبت بذلك الشموخ القومي فيـه ، وذلك التحدي باسم الامة ، وتلك الثقة بأنها لن تموت ، ولن تسلم قيادها للفناء ، لكنني لمست ايضا ، جرحا في صدره ،انسته اياه جراح في صدورنا من نكبة فلسطين وغيرها ، فهو يعترف :

لا اقول « اللواء » .. ما كان يوما
غير جرح من الجروح « اللواء » !

وهو يستشرف المستقبل ، والانتقام الذي بشر به ليرمنتوف فيقول :

عصبـي امتـي جراحـك وامضـي
لـك يومـا مـع الجنـاة لقـاء ..

اجل ايها الشاعر .. اننا نعيش على امل هذا اللقاء ويومها لن تبقى « كتلة سوداء » على الرصيف، والدنيا مطر وثلج وزمهرير ، ولن يبقى صرح ، ماتعاظم الا من تطامن كوخ ، ولااستعمار مااستشرى الا لأننا مكنا له في الاستشراء ، ولا عدو يذبح أطفال ونساء وشيوخ صبرا وشاتيلا ، وفي الوطن العربي ، الا بعضه ، صمت متدثر بالذل ، .

ان حد الحد ، في ان نكون او لانكون ، هو ان نرفض مصيرا بائسا كهذا المصير الذي اوصلنا اليه ساسة عرب وا أسفاه . ومن الخير ، والشعراء ألسنتنا ، ان يرفضوا باسمنا كل هذا الخنوع الذي نمشي به تيارا عربيا نحو الاستسلام ، فلا يبقى في الساح سوى الذين آمنوا بالنصر أو الشهادة ، وعلى ربا لبنان دماؤهم ، وتحت أنقاض بيروت اشلاؤهم ، وفي سمع الدنيا وبصرها صوت استغاثتهم ولا من مجيب .

ولن نيأس ، وليست لنا اسباب لليأس ،فالمعركة طويلة ، سلاحا وشعرا ومفاداة ، وهي طويلة ، نفسا وبصيرة ومعاناة ، ولن نقول « خُطاً كتبت علينا » فالخطا نحن اصحابها ، ونحن نعرف ايها الشاعر ،

ان الطريق يمتد بين قريتك الاولى : « النعيرية » في اللواء ، وآخر كثيب رمل في الصحراء ، وان علينا ان نجتازها جيلا ، فجيلا ،فجيلا••وبانتظار الوصول، فلنشحذ اسلحتنا ، وأزاميلنا ، وأشعارنا ،ولنقل معك:

انـا فـي اعمـاق قومـي صرخـة
تتشـظى •• لا قصيـد يقرأ
حسب لحـن ينتهـي فـي وتري
انه في صدر غيري •• يبدأ ••

ولا بأس ، قولة ديمتروف ، ان نستريح ، بين مرحلة واخرى ، ونستروح ، وان نسفر لقومنا عند النجوم ، طائرين اليها على بسط الريح ، والغزل ، والبوح ، وان نعود ، والعمر نهر سريع ، الى المنبع الاول ، الى مسقط الرأس ، وان تعتادنا الذكريات ، لاصدى سنين فقط ، بل صفائح دروس ، الكفاح كتابها ، بداية ونهاية ••

انني لااعرف اللواء السليب ، لكنني اعرف صدقي اسماعيل ، وسليمان العيسى ، ومسعود الغانم وغيرهم وغيرهم •• ومن خلال اللوائيين ، المناضلين والمبدعين، صرت اعرف اماكن عزيزة في اللواء : انطاكيـة ، اسكندرونة ، الحربيات ، السويدية وغيرها،واصدقك انني تأثرت ، كأنني انا العائدة ، حين قرأت قصتك

الشعرية عن العودة الى النعيرية ، وخاصة قولك عن التينة التي تحتها كلمت الحرف الاول ، وانطلقت الورقة الاولى :

غريبين سلمنا ، ولمت جناحها
ووشوش غصن جاره يسال الفصنا
هنا .. وتهاوت نسمة من ذؤابة
تعانقني سرا ، تقول : تعارفنا

أيها الشاعر :

هكذا الحكاية .. بسيطة وموحية .. وهكذا شعرك ، حقيقي ، ولأنه كذلك فهو جميل ، فالجمالية والحداثة لا تكونان في الغموض والابهام ، بل في الشاعرية والصدق ، وفي الجواب على هذا السؤال : اتجاه الموهبة الى أين ؟ ومن الذي يخدم ؟ أنت قلتها صريحة : في خدمة الشعب ، وتلك هي مأثرتك القومية والانسانية . تلك هي العلامة على أنك كنت ابن عصرك ، ابن بيئتك ، ابن وطنك العربي ، أنك أنشأت تاريخه وواقعه في تأليف فني شديد التأثير .

ومع أن الشجرة العربية لم تهرم ، ولن تهرم ، وحتى في موتها ستظل واقفة ككل أشجار هذا العالم ، فانك التفت ، في السنوات الأخيرة ، الى شتلات

يانعات في دوحنا ، هم أطفالنا ، أكبادنا ، مستقبلنا الوضاء ، وخصصتهم بشعرك ، بعضه الأكثر ، في نوع من الحب الأبوي ، وفي براءة يملكها الشاعر وحـده ، لأنـه في الطفولة يبقى ، وفي حرص على سلامتهم يسهر ، كأنما تنشد بيت بدوي الجبل :

ويارب مـن اجل الطفولة وحـدها
افض بركات السلـم شرقا ومغربا

تروني أطلت ؟ هكذا حديث الشعر يغري ••• فالهوى الشعري هـوى الدراسة والصبا ، وهـو النفس في صبوتها الى التحقق في ذات الوجود وجوداً أبهى ••

أشد على يدك يا شاعرنا الكبير •• وأقدم باسم وزارة الثقافة ، وباسمي ، وباسم المثقفين جميعا ، تهنئة صادقة بفوزك بجائزة « اللوتس » العالمية ، هـذه الجائزة التي فوق تقديرها الأدبي ، تأتي تقديـرا للنضال الوطني والانساني ، وتقديرا لافضل المثـل التي يتحلى بها ، ويكافح لأجلها ، صاحب الجائزة ••

ما أصعب امتحان النثر،حين يأتي في موكب الشعر!

وشـــكرا

اللوتس.. زهرتنا الخالدة

سليمان العيسى

القيت في حفل التكريم الذي اقامته السيدة وزيرة الثقافة والارشاد القومي الدكتورة نجاح العطار للشاعر ... اثر فوزه بجائزة الشعر في ٩ تشرين الثاني ١٩٨٢ .

الاخوة والاخوات ..

البيان المشرق الرفيع ..

الكلمة الشفافة الشاعرة ..

يسمونها في بلدي : وزيرة الثقافة .

تحفظ شعري خيرا مني .. وإني بذلك لفخور .

ترويه بنبرة عربية اصيلة .. فيها عراقة دمشق وذوق ياسمينها وشموخ باسقات الغوطة .

قالت الأديبة الوزيرة : انني احفظ شعرك وانا على مقاعد الدرس . شأني في ذلك شأن جيلي من فتيان الخمسينات وفتياته .. جيل الألق القومي الذي توهج في تلك الفترة .. ليتعب فيما بعد ، ولكن لا لينطفيء . إنه لا يستطيع ان ينطفيء .

وراحت الاديبة الصديقة تنشدني من قصيدة « الجسر والمقهى الهرم » احدى رسائلي الشعرية القديمة الى رفيق الطفولة الخالد صدقي اسماعيل في دمشق :

للجسر ، ومقهاه الهرمِ
طيف في الخاطر لم يرمِ
صور تنثال على قلمي
شعراً .. لو مر على وتر
لتفجّرَ نبع من نغمِ

. . .

إن عُجْتَ على المقهى فقفِ
وتجاهَ الساقية انعطفِ
كرسيُّ القشِّ على طرفِ
وخيوط من ضوء القمرِ
وسلام الزهد على الترفِ

. . .

حسناء ، ومنديلٌ شَفُّ
وفتى بالفاقة ملتفُّ
وخطىً تمضي ، وخطى تقفو
وصفاء الافق مدى البصرِ
ونداءَ الحب .. ألا تهفو ؟

واعترف اني كنت قد نسيت القصيدة منذ ربع قرن ونيف .. فقد مر بنا ما يفتت صخور الجبال .. ويمزق ذاكرة البحر فكيف بذاكرة شـــاعر ؟

ولكن الذاكرة المرهفة ، الوزيرة الصديقة لا تنسى ..

ومن سجايانا العربية ان يكون الشعر زادنا ، وان نلجأ اليه في ساعات المحنة ، كما في لحظات الهناءة والاشراق .

قالت : لقد اهدى اليك زملاؤك كتاب آسيا وافريقيا وردة اسمها « جائزة اللوتس » جائزة الشعر في هذا العام . جاءتك من بعيد بعيد من أرض البطولات العنيدة ، من البلد الصديق الـذي ضمهم في اجتماعاتهم الاخيرة ، مـــن فييتنـــام .

لقد قدموا الوردة الينا جميعاً .. قالت الدكتورة .. نحن تلامذتك واخوتك .. ولا بد ان نحتفي بالهدية ، وبالشاعر معاً .

قلت ، وانا اطرق خجلا ، فقد فاجأتني الكلمات الحلوة بأكثر ممـا اتوقع ، وما استحق :

شكراً للدكتورة .. وللهديـة ، تعرفين انني لست شاعراً .. ولـم اطمح في يوم من الايام الى ان احمل لقبا او جائزة رغم تقديسي لهذا الذي سميته نبض الحياة العميق .. اعني الشعر .

انا ــ كما قلت غير مرة ، وكما سجلت في مقدمة مجموعتي الكاملة ــ خلية في جسد .. تبحث عن ملايين الخلايا من اخواتها ، وتكافح بلا هوادة لكي يتحركُ الجســد ، وتتفتح الحيـــاة .

وجسدي هو امتي .. هذه الامة العربية العظيمة المنكوبة الممزقة التي مدت جســـور الحضارة بيني وبين العالم ، منـذ وجـد العالم وكانت الحضـــارات .

لهـاتي .. وملتني أناشيدَ ماتمي
أطلي علينـا .. وحدةٌ طيف وحدةٍ
بريقاً ، سراباً ، كيفما شئتِ فاقدمي
وهبتكِ عمري .. ما وهبتَ سوى الظما
اليكِ .. أنا الحادي القتيلُ ، أنا الظمي
أطلي على الأطفـالِ لا يتشردوا
ومن أجلهم يا ليلنا الخالدَ ابسم
أطلي عليهم في الفجيعـة وحـدهم
لهم وحدهم شقي التراب وبرعمي
لهم وحدهم .. إنْ تعتبري بجباهنـا
ففضي .. الفناء سكوتَ المسلمِ

ومع ذلك .. فلن تسلم الارض العربية .. ولن تبقى الغصة تحرق الحناجر ، وتمزق الشرايين ، وتذل الدم الجاري فيها الى الأبد ..

عنيدة احلامي .. قلتها في كلمتي امس للأصدقاء . واقولها اليوم .. للأهل والأصدقاء .

كل ما يريدونه منا ، ايها العزيزات والاعزاء .. كل ما تصر عليه قوى التخريب والدمار في الداخل والخارج .. كل مآسينا ومذابحنا .. كل اطنان النار التي تنزل على رؤوسنا تريدنا ان نقتنع بعبارة واحدة فقط .. لا تطمح الى ابعد منها ، ولا الى اسوأ ، تريدنا أن نقتنع : اننا انتهينا ..

وعبارة واحدة نستطيع أن نتحدى بها الدمار الذي ينصب علينـا والموت الذي الفناء .. عبارة واحدة حرصت عليها في كل كلمة من شعري وفي كل نبضة من حياتي : اننا باقون .. بل اننا لم نبدأ بعد .

خذيني ، ليس من ورقٍ اهابي
دمُ التاريخ ينبض في ربابي
اغني ؟ كل انات السبايا
حروفي ، كل ملحمة العذاب
خذيني ، لست رجـع صـدى
ولا عـددا
ولم آتِ المدينةَ كالغريب يدا
ووجهاً ليس يعرفُ في مضارب اهله احدا
انا التاريخُ والبلـدُ
انا العـددُ
ونبضُ الأرض ، والأرض التي تلِدُ
على ناب الأفاعي والخناجر لم تزل تلِدُ
وتحمل وجهها العربيَّ عتَّقَت المآسي فيه والأحزانُ والسُّهدُ
وصارا توأمين ، وهاديَيْنِ الفَيءُ والرُّشدُ
انا تلكِ .. اعرفُ الصحراء بيتي   واعـرف ايُّ سـر في اليَبَـابِ
خذيني ، في صميم القحط زرعي   جـذوري في شرايـينِ التـرابِ
خـذيني ، ليس من ورق اهـابي

أيها العزيزات والاعزاء :

من ظل شجرة التوت الخضراء التي كتبت تحتها اولى قصائدي ، أمام بيتنا المتواضع ، في حارة بساتين العاصي .. في لوائنا السليب ، من

٣ كتّاب » أبي الشيخ احمد العيسى ــ عطر الله مثواه ونضر ذكراه ، من مدرسة العفان الابتدائية التي كانت اول شرارة الهبت حياة شاعر ، من اول نكبة في تراب العــرب المنكوب واول انتفاضة عميقة واعيــة على العبودية والذل والتخلف والتجزئة ، من ملحمة الارسوزي ، ملحمــة العروبة الجريح الاولى .. من صراع البؤس والحلم ، والموت واليقظة ، خرجت مع جيلي من ابنــاء اللواء . قبضة من المشردين الاوائل نذروا انفسهم للعروبة .. للوحــدة ، للحلم العظيم ، لرفض الواقــع العربي المهترىء المريض ، قبضة من الرفاق ، المح بعضهم بيننا الآن ، تحملوا ــ كما يقول رفيق الطريق الحلو المر الدكتور وهيب الغانم ، في المقدمة التي اضاء احدى مجموعاتي الشعرية بها ــ .. تحملوا كل صنوف الاذى من الاجنبي ومن عمالــه في الوطــن ، وعضهم الجــوع والبرد ، وسجنوا واضطهدوا ولكنهم لم يهنوا لحظة واحدة ، وكانوا أبداً العنصر المتطرف الذي لا يرضى الا بالحرية والاشتراكية ، والوحدة العربية من دون اية مساومة او تجزئة » .

كنا قافلة التشرد الاولى ..

تلتها بعد ذلك قوافل لا عدد لها ..

وما زالت قوى الدمار تصر على ان تقنعنا بعبارة واحــدة بعد كل هزيمة ، بعد كل نكبة ، بعد كل مذبحة اننا انتهينا ..

ويجيبها اربعة ملايين طفل يولدون كل عام في الوطن العربي ، يفتحون اعينهم على هذه الدنيا .. اربعة ملايين طفل اكتب لهم اناشيدي ، وازرع في عيونهم احلامي .. يقولون لقوى الدمار : نحن باقون امتنا كالبحر .. تموت موجة .. موجتان .. أمواج .. ولكن البحر باق لا يموت ..

ايها العزيزات والاعزاء :

شكراً للسيدة الدكتورة وزيرة الثقافة على أن اتاحت لنا هذا اللقاء الجميل ،

شكراً لاتحادنا .. اتحاد الكتاب العرب الذي قدمني الى العالم ..

شكراً لكم على انكم حملتم سليمان العيسى قصيدة حب وامل في صدوركم منذ زمن بعيد ، واسلمتموه الى اطفالكم يحملونه نشيداً حلواً على شفاههم البريئة ويكافئونه اجمل مكافأة يحلم بها شاعر حين يرددون له في نهاية النشيد .

شكراً لجماهيرنا العربية التي كانت وما تزال قصيدتي الاولى .. اعطتني اكثر مما اعطيتها .

شكراً للانسانة الكبيرة التي اضاءت حياتي ، ومدت بالنسغ الحي ثقافتي وشاعريتي .. وكانت ابداً السبب الخفي .. والحافز الصامت في متابعتي الكتابة والعمل دون توقف ، بل انها كانت هي التي تشدني حين اضعف ومن منا لا يضعف ؟ ـ وتذكرني ابداً ان الحياة خط نختاره نحن ، ونرسمه نحن ،ولا يفرضه علينا احد وان الحلم العربي هو قدرنا.. وان الكفاح هو جوهر وجودنا .. وان حياتنا اغنى واثمن من ان نردمها باليأس والسأم .

اني اسجل امامكم اعترافي هذا لاول مرة بحرف بارز ، ونبرة واضحة .. انني مدين بالكثير الكثير مما قدمت لهذه الانسانة العزيزة الرائعة لزوجتي الدكتورة ملكة ابيض .. ام معن .

أيهـا الأخوات والأخوة :
تحيـة اعتزاز وحب لكم جميعاً من صميم القلب ..
وعاش الحلـم العظيم ..
عاشت الأمـة العربيـة الواحـدة ..
والوطن العربي الواحـد ..
جسرنا الخالد الى الانسانيـة
الى الحب ، والشعر ، والعطاء .

سليمان العيسى
دمشق ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢

ما العمل ؟

حافظ الجمالي

اذكر بوضوح اني قرات مقالة للينين ، بالعنوان نفسه الذي اضعه لهذا المقال . ومتى قرا الانسان هذه الدراسة ، عرف منذ البداية ان هناك ثلاثة اسئلة يحاول لينين الجواب عنها . واولها التساؤل عن سمة ومحتوى الشعب السياسي المتكاثر داخل الحزب ، والثاني مهمات الحزب التنظيمية والثالث ، بيان الحاجة الى منظمة نضالية وحيدة لكل روسيا تستبعد كل تفكير ليبرالي من حسابها ، وتجابه السلطة القائمة بكل قوتها . ومن الممكن ، بالاستنتاج وحده ، وحتى لو لم يقرا الانسان هذه الدراسة ان

يعرف الانسان ، على وجه التقريب ، محتواهـا من مجرد العنوان . فالكاتب زعيم سياسي يريد قلب النظام القائم في روسيا آنذاك الى نظام آخر يختلف جذريا ، واداته في ذلك حزب يجب ان يكون موحد التفكير الى اقصى درجة . ولاشك ان اهتمامه هذا وما يعانيه من مصاعب في الطريق يشطره الى مثل هذا العنوان للدراسة التي نشير اليها ، لاسيما وانه كان لديـه معارضون اقوياء ، يأخذون او يميلـون الى النزعـة الاقتصادية ، من امثال برنشتاين ، ويقبلون بالاسلوب الديمقراطي وسيلة للتطور ، مما يخالف اتجاهاته هو ، ويتباين معها تباينا تاما(١) .

اما انا ، كعربي ، فاني اضـع العنوان نفسـه لشيء آخـر ، ابعـد من هذا بكثير . بل لعلي اجد هموم لينين واصحابه ، هموما بسـيطة جدا بالقياس الى الهموم العربية . او قل كان لينين كان على مائدة لا يحب الوان طعامها ، ويريد تبديلها بغيرها على ايدي طهاة افضل . اما عندنا ، فان المائدة كلها مفقودة . وبتعبير آخر ، ليس تحسـين الوجود ورفعه الى صورة اجمل وافنى بالنبل ، وارفع كقيمة انسانية هو الذي يعنينا نحن بالدرجة الاولى ، كما كانت الحال مع لينين ، بل هو « امكان الوجود نفسـه » . ترى هل سيفسح القـدر مجالا للوجود العربي بعد الآن ، او ان هذا الوجود نفسـه قد اصبح موضوع شك ؟

ولقد نشرت المعرفة منـذ قريب مقالا للاسـتاذ جـلال فاروق الشريف(٢) ، يتسـاءل فيه ، بعد كثيرين يثبت افكارهم ويذكر مراجعه عنهم ، عمـا اذا كان العرب قـد حققوا ، مشـروع النهضة الـذي كانوا ، بلسـان مفكريهم ، منذ القرن التاسع عشر ، يتوقون الى تحقيقه ؟

(١) راجع الكراس الذي عنوانه Que Faire في الجزء الخامس من اعمال ماركس.

(٢) في المعرفة ، العدد ٢٤٨ الصادر عن دار النشر Editions Sociales في باريس، ص : ٢٥٣

ورای في نهاية المطاف انهم لم يحققوا لا الدولة الديمقراطية العلمانية كبديل عن سلطنة الخلافة ذات الطابع الديني ، ولا الدولة المصنعة التي دعا الى مثلها امثال شبلي شميل ، ولا الدولة الموحدة التي كان الجميع يشعرون بالحاجة اليها ، تكرارا لماضي مجيد ، اولا ، ولكن بالدرجة الاولى ، كحاجة دفاعية في وجه الغزاة والمستعمرين . ويختم الصديق مقاله ، بترديد فكرة اساسية هي التي كانت وراء كتابة المقال نفسه : هي أن لا طريق للعرب بعد الآن (وأضيف أنا القول : ومن زمان بعيد) الا الوجود او عدم الوجود . وعليهم أن يختاروا ، اذ ان هذا الاختيار أمر اصبح مسألة مستعجلة جدا ، لا مجال معها للمناورة او التأجيل .

***

ولست اخالف هذه الافكار في شيء ، وأرى كما رای برهان غليون ، واحمد حيدر ، وصدقي اسماعيل، منذ عشر سنين او عشرين . . . وكما رای آخرون قبلهم بكثير ، وبصورة اعمق ولاريب ، مثل الدكتور زريق ، والدكتور نديم البيطار ، حديثا ، ومثل مفكري القرن التاسع عشر كله ، من الافغاني الى الكواكبي ، فمن تبعهم او سار على نهجهم ، في صورة التساؤل والتفكير ، لا في الاجابة والتقدير ، اقول : اني أرى أن التساؤل « نكون او لا نكون » سؤال مطروح على العرب ، منذ ايام التخلف العثماني فيالقرن السابع عشر ، ولو ان العثمانيين فطنوا الى هذا التخلف ونتائجه المدمرة ، وخطره على مستقبل وجودهم ، قبل العرب بزمن غير قصير . وكما أن العثمانيين الذين انقلبوا فيما بعد الى مجرد أتراك كماليين ، حاولوا الف محاولة من أجل أن يصبحوا متقدمين، ولم ينجحوا حتى الآن الا في لبس القبعة بدلا من الطربوش ، ورفع الحجاب عن المرأة التركية، وارتداء الزي الاجنبي بدلا من الزي التقليدي، لا اكثر ، فكذلك نحن لم ننجح . . . في شيء مما اراده لنا كبار مفكرينا

ممن دعوا الى النهضة وارادوها بكل جوارحهم . واظن ان هذا الاخفاق شيء أكثر بكثير من ان يستحق مجرد العجب والدهشة . فهل من شعب يستطيع خلال قرنين تقريبا ، الا ينجح ابدا ، ويخفق دوما ؟

وفي يوم من الايام كان هرتزل يكتب مذكراته عن مؤتمر بال ، حيث قرر انشاء الدولة الصهيونية في فلسطين ، فكتب مايمكن تلخيصه بهذه العبارة : « اني اليوم انشأت دولة اسرائيل . . وفي غضون خمس سنين او خمسين سنة على الاكثر سيعترف العالم كله بها . » ولقد علق مؤلف صهيوني على هذه الكلمات بالقول : « وهكذا نرى ان هرتزل لم يخطىء في تقديره حتى ولا نسبة واحدة ؛ ففي عام ١٨٩٧ وضعت اسس الدولة الصهيونية ، وفي عام ١٩٤٧ اصبحت حقيقة واقعة . » اما في عام ١٩٨٢ فان العالم يعتبر اسرائيل القوة العسكرية الرابعة في العالم ، بمقدار مايرى « ريغان » ان حرب اسرائيل في لبنان برهنت على ان قوة اسرائيل العسكرية ليست ثانية بالنسبة الى اية قوة اخرى في الشرق . ومع ان مساعدات امريكا كبيرة وضخمة ، فمن الممكن القول مع ذلك : انه متى انقطعت المساعدات العسكرية عن الطرفين العربي والاسرائيلي من الخارج، فان نسبة القوى تظل هي هي ، كما تظل مانعبر عنه هذه القوة ، هو هو . اذ لايوجد في العالم قوة عسكرية من نوع ما . الا لتكون صورة مما وراءها، او عن المجتمع الذي انشأها .

ونظرة واحدة الى مهمة هرتزل ومهمات القادة العرب . والى الفرق بين مستوى المهتمين ، تكشف لنا عن صعوبات الاولى الكبيرة ، نظريا ، اذا هي قيست بالثانية : ان هذا مما يذكرني بالايام التي اقترحت فيها واشنطن كعاصمة للولايات المتحدة . وفي ذلك الحين ، اي قبل ١٨٠٠ ، لم تكن واشنطن الا مجرد غابة كبيرة ، ملأى بالمستنقعات والنهيرات

والوحوش والحشرات والطين . ولهذا علق احد الساخرين على هـذا الاختيار بالقول لاشك ان واشنطن بلدة عظيمة ، لاينقصها الا الشوارع والابنية والمدارس والمتاجر والمستشفيات والناس . ومع ذلك فان كل ادارات الدولة العظمى التي هي الولايات المتحدة الان (والتي كانت تتالف آنذاك من أربعة ملايين مهاجر : ثلاثة ملايين ونصف المليون منهم بيض ، ونصف مليون من الملونين) ، نقلت اليها . وعندما ننظر الى هذه العاصمة اليوم او نقارنها بأية عاصمة اخرى في العالم ، فانها تقبل التحدي ولا تخشاه في شيء . ومهما يقل في باريس ذات الالفي عام من العمر ، فان من الصعب القول ان واشنطن دونها في امر او اخـر ، ولو اختلفت الميزات .

وحقا فلقد كانت مهمة الصهاينة صعبة الى ابعد الحدود ، لانها تحتاج الى كسب ارض وجلب شعب ، واقامة دولة . اي انه لاشيء من عناصر الدولة كان بين ايديهم . أما العرب فكان لديهم الارض ، والشعب، وحتى الدولة المستقلة احيانا أو شبه المستقلة ... وكان السباق عندئذ، بدءا من عام ١٩٢٠ حتى الان . فماذا كانت النتيجة ؟ انها مانعرف تماما : عرب بمئة وخمسة وستين مليونا من السكان ، يقفون عجزة ، حيارى ، لاحول لهم ولاطول ، تجاه ثلاثة ملايين صهيوني .

والمشكلة هي أن هؤلاء الصهاينة يعرفون حق المعرفة ماهم عليه من القوة ، ويرون بوضوح أن حلمهم في دولة تمتد من الفرات الى النيل لم يعد مجرد حلم ، وانه مامن قوة عربية في هذا المجال تقف حائلا دون اطماعهم . وهم منذ الان قد تجاوزوا هذا الحلم ، واصبحوا يفكرون بشيء أبعد بكثير . وكما قال شارون للصحفية فاللاشياني الايطالية ، فانهم يرون أن مستقبلهم القريب سيكون في ممارسة التأثير الاول لافي الدول العربية فحسب ، بل في تركيا وايران ، والنصف الشمالي من

افريقيا ، وان في يدهم ان يحتلوا اية ارض عربية ، ويعبثوا بسكانها ، ويذيقوا العرب لا مذابح دير ياسين ، وكفر قاسم ، او صبرا او شاتيلا ، بل الف مذبحة اخرى من نوع اشد هولا ، وبؤسا . ويصرحون علنا بأنهم لن يجدوا عناء كبيرا في القضاء على الدول العربية ، لان قوة التدمير الذاتية للعرب افعل وانجع بالنسبة لهم . ولماذا نضع ايدينا في النار ، لتناول الكستناء ، ان كان هنالك عدد كبير من المتطوعين يتناولونهـا بالنيابة عنا ، ومن اجلنا ؟

سيقول بعض الناس : او ليس هنالك في الارض توازنات دولية ؟ وهل يترك لاسرائيل الحبل على الغارب ؟ او لا تكون هنالك قوات رادعة من هنا او هناك ؟ وهل ترضى حتى امريكا ان تحتل اسرائيل اجزاء جديدة من الدول العربية ؟ وكل هذا صحيح . وهذا بعينه هو مايقف دون تمدد اسرائيل يمينا ويسـارا بالنسبة التي تنسجم مع قواهـا الذاتية .. لكن القضية هي قضية ظروف ملائمة او غير ملائمة . وسوف تنتظر اسرائيل حتى نخلق نحن لها الظروف الملائمة ، وسوف تساعدنا على ذلك بألف حيلة نعرفها لها ، كاثارة الفتن الطائفية ، ودعم القيادات المتآمرة او الخائنة او العاجزة او الهامشية ، وشل كل صور التقدم الجدي ، واغراقنا اكثر فاكثر في نعيم المجتمع الاستهلاكي . وبالجملة فان الاقوى بين قوتين هو الذي يستطيع التلاعب بالاضعف . ومادامت اسرائيل محصنة بقوتها ، فان الظروف ستاتي دوما ملائمة لها . اما العجزة فان الظروف ، حتى اذا كانت ملائمة ، لن يستطيعوا الاستفادة منها .

والقضية هي هنا تماما . ففي الارض دول متخلفة كثيرة ونحن منها والحمد لله الذي لايحمد على مكروه سواه . غير انه مامن احد يفكر بالهجوم على الهند او الصين او نيجريا او الكونغو او الحبشة اوالسنغال ،

او يحتل بعض ارضها ، او يضم اليه بعض اجزائها . اما نحن فكل الدنيا طامعة بنا ، واسرائيل بالدرجة الاولى . ومن هنا يأتي الخطر الكبير الذي نعانيه وحدنا دون الناس اجمعين . وهكذا فان المشكلة ليست في تخلفنا او عدم تخلفنا ، في كوننا حققنا النهضة او اخفقنا فيها ، اذ ان الكثيرين يعيشون رغم كل تخلف هم فيه . واما نحن فلن نستطيع البقاء متخلفين لاننا سنؤكل عندئذ بأكبر سرعة .

واما المشكلة أن نوجد او لا نوجد ، نكون او لا نكون ، نختار الحياة او نختار الموت ، فانها تنقلب بأسهل الصور الى مشكلة أخرى ، هي أن نبقى متخلفين ، أو نتواضع ونرضى اخيرا بان نكون غير متخلفين . ومن المؤسف اننا لم نتواضع بعد ، ولم نرضى بأن نكون غير متخلفين . بل لم يعجبنا قط الا ان نمعن في التخلف ، وان نزيده عمقا . وان نؤممه على كل صعيد .

وحقا فانه لايثيرني الا هؤلاء الذين يقولون : اننا نتقدم ، وانا اسأل : بماذا نتقدم ؟ الاننا في الوطن العربي كله أكثرنا من المدارس ؟ وبنينا بعض المصانع ، وحصل طلابنا على منح خارجية او داخلية فازوا معها بشهادات ، سرعان مانصفها بأنها متميزة عن كل الاخرين الذين نالوها ؟ الحقيقة ان الكلمة التي قالها يوما ما امين عام وزارة الخارجية الفرنسية في مؤتمر ما للدول الافريقية الناطقة بالفرنسية هي التي تبدو لي اصدق واصح . ذلك انه قال ان كثيرا من الامم المتخلفة لا تتقدم الا الى الوراء ، من حيث ان الغذاء كان يكفيها من داخلها ، واصبحت بحاجة اليه من الخارج ، ومن حيث تبعيتها المتزايدة للدول المتقدمة ، ومن حيث خلل ميزان مدفوعاتها ، ومن نواح كثيرة اخرى . وماذا يعني ان نستورد من هنا وهناك معملا او الف معمل ، ونجعلها عنوانا لتقدمنا في الحين الذي نعجز نحن فيه عن اصلاح اي خلل في آلاتها ، وعن جعلها تنتج انتاجها الطبيعي او شبه الطبيعي ، وعن تقديم المادة الاولية لها في كثير من الاحيان؟

ان من يقرا مجلاتنا التي تعالج شؤننا العربية ومشكلاتنا المختلفة ، كقضايا عربية ، وشؤن عربية ، والمستقبل العربي ، وكذلك من يقرأ الكتب والدراسات التي تتناول مختلف قضايانا بالبحث والتحليل ، لا يسعه الا أن يجد ان كل هذه الدراسات لا تزيد على ان تكشف فضائح مهنية لاحد لها في كياننا العربي . واذا نحن لم نتكلم الا على مشكلة الغذاء او الامن الغذائي في الوطن العربي وحده، فان كل الدراسات التي نجدها بين أيدينا تشير الى ان نصف حاجاتنا من القمح في الوطن العربي نستوردها من الخارج ، والى أن ما يتراوح بين ٧٠ــ٨٠٪ من زيوتنا ولحومنا وجبننا وسكرنا يأتينا من الخارج ، والى ان هذه الازمة اخذة في التفاقم . ففي آخر القرن سيحتاج العرب الى ٢٥ــ٣٠ مليون طن من القمح يجب أن تشترى من اصل مخزون عالمي لا يزيد عن ٨٠ــ٩٠ مليون طن . فما هو الراي في أمة نسبة سكانها الى العالم هي ٤٪ وتحتاج مع ذلك الى استيراد ٣٠٪ من المخزون العالمي من القمح . وصحيح أن سورية لا تستورد القمح الآن ، ولكنها تستورد الطحين ، كما قال لي مرة احد المطلعين ، فهل يقال بعد ذلك اننا نتقدم ؟ وهل يتخلف لدينا الا التقدم(١) ؟

ونتساءل بعد ذلك عن الانتاج العلمي في بلادنا ، بالقياس الى انتاج العالم . فمن الذي يصدق انه لا يتوازى الا بنسبة ٣٪ من استحقاقنا ؟ وهل المسافة الفاصلة بين تقدمنا العلمي هذا وبين حقنا الطبيعي منه الا التعبير الاكبر عن درجة تخلفنا . اننا نستورد معلبات التقدم ، ونزين بها بلدنا ، ونقول : ها نحن نتقدم ، كما لو أن التقدم مجرّد استيراد من الخارج . ولكن من يشتري سيارته الصغيرة او الكبيرة ، الحقيرة او الانيقة من الخارج ، ثم يصدّق بعد ذلك انه صنعها ؟

ان للتقدم معايير تتركز اليوم على درجة التصنيع الذي يتصل هو نفسه بدرجة تطور العلم وتطبيقاته . وما نزال نحن، في كل البلاد العربية،

(١) راجع كتاب الدكتور محمد علي الفرا عن الامن الغذائي في الوطن العربي .

من هذا كله ، على هامش الهامش . الا ان للتقدم معايير أخرى ، لاسيما اذا جعل التقدم الصناعي جزءا من كل ، هو الحركة التقدمية جملة ، لا بعض اجزائها . ولقد تسنى لي ذات يوم ، على سبيل التأمل ، ان اقارن الدول التقدمية العربية والدول الرجعية فيما بينها ، لالاحظ كيف تتقدم اولاها على الثانية . وقلت في نفسي : لابد ان الدول التقدمية ليست كذلك ، الا لأنها :

١ ــ تثمّر مواردها الاقتصادية تثميرا أكبر ، وبصورة عقلانية ، بحيث ينمو دخلها القومي بسرعة اكبر ، والى مستوى اعلى من الدول الرجعية .

٢ ــ وتعدل في التوزيع ، فلا يكون بين الافراد تلك الفوارق العظيمة في الثروة التي تلاحظ في الدول الرجعية .

٣ ــ وتخدم أهداف الامة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية، خدمة اكبر ، ولاسيما في قضية فلسطين . بل لعل أعظم تقدمية ذات قيمة اليوم ، هي في الوقوف ضد الصهاينة ، والدفاع عن المقدسات العربية ، بغض النظر عن كل القيم الاخرى .

٤ ــ وتؤمن أو تضمن للانسان شروط حياة يكون فيها مطمئنا على حياته ، موفور الكرامة ، مصون الشرف ، ، لا يعبث به بصورة عشوائية اكبر العبث احيانا ، وكل العبث احيانا اخرى .

ولست أدري ان كان هناك من يجد بعض المبالغة في هذه الافتراضات . عندئذ اما ان يمحي الفرق بين التقدمي والرجعي ، واما وهذا هو الاحلى والاجمل ــ ان تكون هذه المعايير في مصلحة الاقل تقدمية ، لا الاكثر تقدمية .

وحقا فقد استبعدت من حسابي دول النفط التي يصدر غناهـا ومواردها ، عن هبات الهبة ، ووقفت عند حدود الدول العربية اللانفطية، رجعيها وتقدميها على السـواء ، فوجدت :

١) ان تثمير الثروات كثيرا ما يكون في الدول اللاتقدمية افضـل منه في التقدمية ، وهكذا نجد متوسط الدخل في تونس افضل منه في بعض الدول العربية التقدمية ، بل لعله افضل ـ بل هو حتما افضل منه في الجزائر والعـراق اذا اقتطعنـا من الحساب فائض الثروات النفطية .

٢) وان عدالة التوزيع ليست في البلاد التقدمية بأفضل منها في غيرها . وهكذا يجتمع في كل البلاد العربية اقصى الغنى مع اقصى الفقر ، بغض النظر عن طبيعة الانظمة .

٣) وان شرط حياة المواطن واحد تقريبا في الجميع ، اي ان ما يعانيه المواطن من البؤس ، والظلم ، واللاامن ، وما يكابده من خـوف وقلق وتهديد للمصير ، واحد ايضا ولو اختلفت درجات الحدة .

وعندما نجد ان معايير التقدم المادي ، والمعنوي لا تتميز . بوضوح في بلد عنها في بلد آخر ، وان كل الدول العربية (باستثناء سورية) وقفت واجمة امام نكبة الفلسـطينيين في لبنان ، وان ثلاثة ايام او اربعة كانت كافية للقضاء على كل مقاومة عربية في لبنان ، وانه كان في وسع الصهاينة دوما ان ينزلوا ما شاؤوا من الضربات في القـوى المعادية ؛ فان لي الحق في الظن بأن بلادنا محتلة بالقوة ، ان لم تكن محتلة بالفعل، وانه لايمكن أن نكون قد حققنا تقدما معقولا او شبـه معقول ، ثـم اصابتنا كل هذه النكبات .

ان هذا يعني أن الكيانات العربية كانت اقل بكثير من أن تجابـه المعركة المصيرية ، وانها برهنت بوضوح لا يعادله وضوح آخر ، انها

عاجزة عن حماية حدودها ، واكثر عجزا عن حماية ارواح ابنائها ، وثمرات التنمية التي انشأتها ، وان بلادنا موشكة متى اراد لها العدو، أو سنحت له الظروف ، ان تفقد استقلالها . فماذا بقي بعد ذلك لكي تفهم دولنا .. ان اخفاقها يعني الكثير ، وان عليها ان تعكس المسيرة التي سارتها ، حتى الآن ، او ان تقلبها رأسا على عقب ، لكي يستقيم أمرها ؟ ان كل صواب كنا نظنه في عملنا وسلوكنا صار خطأ بالضرورة ، نتيجة لهذه التجربة المرة ، وبالتالي فان عكسه يجب ان يكون الصحيح على كل مستوى ، فان لم يصح ذلك كله ، فلابد من ادخال تعديلات جذرية ،اساسية ، عميقة ، شاملة على نظم حياتنا ، على ضوء بحث حر ، ونقد من الجذور ، لكي نطمع في بقاء بلادنا (او ما سيبقى منها) حرة مستقلة .

والآن نعود الى سؤالنا الاول : ما العمل ؟ ان من اغرب الغرائب هنا ان ثقافتنا اليومية والاسبوعية والشهرية (اي في الصحف ، والمجلات) لا تعكس أي اهتمام جدي بهذا الواقع المفجع ، حتى ليخيل الي ان الفكر العربي مفارق لواقعه كل المفارقة . واذكر على سبيل المثال ان مجلة ثقافية من مجلات الوطن العربي في هذا العام تعالج مواضيع هامة من النوع التالي : زين العابدين التونسي ، رائد الصحافة ، ونظرة في روايات حنا مينه ، والطابع العلمي في الفنون الاسلامية ، والمعتقدات الشعبية في تونس ، وقانون الالغاء في كتاب سيبويه ، واتجاهات الاغنية العربية المعاصرة وأشياء كثيرة من نوع هذه الروائع . لكنها لا تخص الوضع العربي الحار القائم بشيء من التعليق الا عن طريق عرض كتاب لجاك بيرك عن الاسلام والتحديات ... كما لو انه كان ينبغي ان يوجد مفكر اجنبي ، غريب الديار ، ليلامس في بحوثه بعض قضايانا بصورة نظرية محضة ، قلما تغني أو تسمن من جوع ، أصحاب الديار . والحقيقة ان الفكر العربي لا يسعه ان يفارق الواقع ابدا ، ككل فكر على

وجه الارض ، الا ماكان من المتصوفة ، أو الذاهلين او المصابين بالفصام. فاذا لاحظنا بعدا ما ، بين الفكر العربي والواقع العربي ، فذلك ابتغاء للسلامة وهربا من الاخطاء ... فكان الفكر العربي ملزم الزاما بهذا البعد تحت طائلة ماندري وما لا ندري من الاخطاء ، بسبب من نعومة التعامل بين المواطن الذي يفكر علنا وليفكر كما يشاء سرا ، او على المستوى الشفهي) وبين مراكز القوى التي اصبح تفكيرها الظاهر اشبه ما يكون « بالمعلبات الجاهزة » ذات الاسم الواحد ، والصالحة لكل زمان وكل مكان ، وكل هزيمة ، وكل اخفاق ..

غير أن المصيبة تظل ادهى وامر مما تقدم . بل لعلها ليست بمصيبة البتة ، اذا وجد المفكرون ان الانظمة العربية التي دهاها مادهاها ، اصبحت هي التي تفكر بالنيابة عن المواطنين والمفكرين : وهنا اجد ، مرة اخرى ، أنه ما من نظام عربي تساءل عن مغزى هذا المصاب ، وما سياتي بعده من مصائب ، وكيف يتقيها ، او يتقي امثالها في المستقبل ، فان كان ما حدث هو آخر المصائب فان عدم التفكير مسموح به .... ولكن ايمكن ان نطمئن الى أن الامر كذلك ؛ او ليس من الحكمة ان يفارقنا هذا الاطمئنان ، وان نشعر باستمرار الاخطاء ، وتدافعها بعضها اثر بعض ؟ او اصبحت اسرائيل بقدرة قادر كائنا سليما ، اخلاقيا ، لا يخشى منه اذى ولا شر يصدر عنه ؟

لقد كنت ذات يوم كاكثر الناس الوم بعض جماعاتنا على القبول بتقسيم فلسطين ، وظننت أن في ذلك ما يشبه الخيانة ، لكن قلت ، فيما بعد ، وعلى ضوء ما كان يجري ، ليتنا قبلنا بهذا التقسيم ، اذن لتفادينا خطر سوء السمعة من الهزائم المتكررة . ولكني عدت عن هذا الراي بعد ذلك ، وقلت : انه لا مجال لقبول اسرائيل باي حل سلمي ، مهما يكن مسيئا لنا ، ومفيدا لها . انها ككل دولة قوية ، لن

ترضى بأقل من بسط سلطانها على الضعفاء من حولها . وكل حل تقبله اليوم ، تلغيه غدا بأدنى المبررات شأنا . فلا مجال اذن للقول : ان القبول بقرار التقسيم كان سيعفينا من المجابهات المشينة التي اضطررنا اليها. ان هذه ستحدث على كل حال ، وبأية صورة . وليس غريبا ان يشعر عرب كامب ديفيد ، من جديد ، بخطورة اسرائيل على المستقبل العربي، وان يدعوا الى انشاء قوة عربية موحدة لمجابهتها .

الا انه يبقى ان السؤال نفسه قائم : فما العمل ؟ ايكون هذا الذي يحدث ، ويتتابع ، من هزائم مشينة ، مهينة بالكرامة العربية ، الجمعية والفردية على حد سواء ، قدرا محتوما لا يد فيه للمهزوم اصلا،وبالتالي فانه لابد من ان ننتظر يوما ما ، يرضى فيه القدر عنا ، ونستحق نعمة الله ؟ وعندئذ لابد من الملاحظة او التساؤل ، على الاصح ، عما اذا كان « رضى الله » مسالة عشوائية ، تحدث او لا تحدث ، بمشيئة علوية ، لا علاقة لها بمن يرضى عنه او يغضب عليه ، او انها « محددة اصلا » بسلوك العباد ، وعملهم بما يرضي الله او يغضبه . ويبدو أن النصوص المقدسة ، من جهة اولى ، وسلوك كبار القادة العرب ، يميل الى هذا التحديد . فعمر مثلا لا يرى سببا لتأخر فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، الا قلة التقوى بين الذاهبين لفتحها . ولكن هل التقوى هذه مجرد التقيد الحرفي باوامر الدين ، كاقامة الصلاة ، وايتاء الذكاة ... او انها شيء آخر اكثر من هذا ، ولعله هو الاهم ؟

ام يكون هذا الذي يحدث ، انما يحدث ، ولابد ان يحدث ، لان الفرق بين الغالب والمغلوب فرق اساسي ، بين حضارة جادة ، عصرية، علمية ، تقنية ، حديثة ، منتجة ، عقلانية ، ــ اخرى قديمة ، هازلة، لا علمية ، ولا تقنية ، ولا عقلانية ، ولا منتجة ، وبالتالي لا سبيل الى تجاوز الهزائم المتكررة ، الا بالقضاء على التخلف ، والاخذ الجدي

بأسباب الحضارة ؟ واذن فلم عجزت الانظمة العربية جملة عن هذه المهمة ، منذ اصبحت البلاد العربية مستقلة ؟ أتراها لم ترد ذلك ، على كونها تجابه عدوا عاتيا ، وراءه اكبر دولة امبريالية ؟ أم انها لم تستطعه ، لا لانها لم تكن مخلصة في عملية التحديث ، بل لان التخلف اكبر بكثير جدا من أن يقضى عليه في زمن محدود نسبيا ، كالعشرين سنة من الاستقلال التي عاشتها الجزائر ، أو الاكثر من هذا بقليل في كل من تونس والمغرب ، أو الاكثر بكثير ، كالمئة والخمسين سنة على الاقل التي اتصلت فيها مصر بالحضارة الغربية ، وباشرت فيها منذ ذلك عملية التحديث ؟ وعندئذ يتساءل الانسان ، هل نكون اذن بحاجة لا الى بضع عشرات السنين في انجاز عملية التحديث ، أو ان ذلك يحتاج الى بضعة قرون ، دون ان نقدر سلفا كم يكون عددها ؟

أم يكون هذا الذي يحدث ، لا يحدث لوجود انعدام التوازن بين كل القوى العربية مجتمعة ، وبين قوة العدو ، بل لان القوى الاولى لم تتجمع ولا تبشر بأنها ستتجمع ، أي لانه ليس هنالك لا وحدة عربية بالمعنى الجدي للكلمة ، ولا وحدة في الحد الادنى يمكنها تجميع هذه القوى . وبتعبير آخر لم يكن هنالك « اقليم ـ قاعدة » بلغة الدكتور نديم بيطار ، يتبنى الاهداف القومية بصورة مخلصة حقا ، أو فيها من الاخلاص ما يشد اليها سائر الجماهير العربية ، ويرغم الحكام العرب على تقديم كل المساعدة للاقليم القاعدة ، لا لحب القادة العرب الآخرين لقادة الاقليم القاعدة ، بل مسايرة منهم لجماهير شعوبهم ، وخوفا من انتفاضات جماهيرية ، قد تؤذيهم ، او تخلخل قواعد حكامهم ، أو تهدمها فتجعلها انقاضا . وهنا يتساءل الانسان .. لم لا يتحد العرب، او لم لا يوحدون قواهم أو كلمتهم ؟ وهم في مثل هذا الخطر ؟ الان الجماهير العربية لا تريد الوحدة ؟ وكذلك تأبى توحيد القوى او الكلمة؟ في الحين الذي نشعر فيه في كل ارض عربية ان الحنين الاول هو

للوحدة ، ولوحدة الكلمة في ادنى الدرجات . فكيف اذن لا تساير القيادات مطامح شعوبها ، بل وتعمل على تنمية حدة الخلافات بينها ، بدلا من ازالتها ؛ الان هذه القيادات شعبية حقا ، او لانها غير شعبية، دون أن يمنعها ذلك من تمثيل الارادة الشعبية ؟ او لا نرى هنا ان مطامح الشعب العربي في اكثر اقطاره شيء ، ومطامح الشعوب شيء آخر ، وان بين فئتي المطامح هذه تناقضا عميقا ، حتى لكأن واحدة منهما تمثل ارادة اجنبية لا ارادة وطنية ؟

اما الاقليم القاعدة ، فاما انه موجود فعلا ، واما انه غير موجود اصلا . وفي الحالة الاولى نتساءل كيف يكون موجودا ولا يتوفر للناس عنصر الايمان به ؟ كما كان شأن محمد (ص) في البداية بين جماعة من المشركين ؛ واذن فهل الخطأ خطأ الكفرة ، او خطأ من لا يحسن الظهور بمظهر الاقليم القاعدة ؟ ولا يبهر الناس بمآثره العظيمة ، على ما كان يفعل عبد الناصر في بعض ايام حكمه ؟

أم ان الذي يحدث ، انما يحدث لان الرجعيين فينا اكثر رجعية مما يطاق ، والتقدميين اقل تقدمية مما يجب ؟ وفي هذه الحال ، هل الخطأ هنا من طبيعة ايديولوجية ، ثم يكفي ان تكون او تصبح — ايديولوجيا — اشتراكيين تقدميين ، صبيحة ذات يوم لتنقلب الآية ، وتصبح الهزيمة نصرا ، وترد الى الامة العربية كرامتها ؟

لست أدري ان كنت قد طرحت كل التساؤلات الممكنة هنا ، ولا اظن ذلك قطعا ، بل لا اظن انني طرحت منها الثانوي حقا ، ووقفت عند الاهم ؛ الا انني الاحظ — ولابد للمرء أن يلاحظ — ان الفرضيات التي فرضتها ، ليست أكثر من تساؤل كبير واحد ، يبدو في صور مختلفة ، فان لم استقصيها كلها ، فانه يكفي استقصاء بعضها . وخلاصة القول فيها أن المؤسسات العربية التي رافقت الهزيمة مرات

عديدة ، لم تعد موضوع ثقة ، ولا يسعها ان تنتج بعد الآن غير ما انتجته من قبل . واذن فلابد ان فيها ما ينبغي الشك فيه ، بل انها يجب ان توضع موضع الشك ، وان يتناولها الباحثون والمفكرون العرب بكل حرية ، ان هذا هو الموقف العلمي ـ العقلاني الوحيد الذي يمكن ان يؤدي الى النجاة ، ولا اقول سيؤدي حتما الى النجاة . اما ما نحن فيه ـ اذا هو استمر ـ فلن يطل على شيء آخر غير المزيد من المصائب والعلل والنكبات .

ترى أيمكن ان تكون هذه الكلمات دعوة الى عقد مؤتمر قومي من كبار المفكرين العرب ، لبحث هذه المشكلة ، والى ان لا يكون هذا المؤتمر مسالة عرضية ، تتكرر في المناسبات دون ان تطل على شيء بعدها ، بل ان يكون تنظيما اساسيا في حياتنا العربية ، تماما كما كان المؤتمر الصهيوني العالمي في الحياة اليهودية .... ولكم يحزنني ان يضطر المفكر العربي الى أن يتخذ من هؤلاء ، اسوة ، او مثالا ، أو طريقة عمل ... ومع ذلك أقول ، اهذا وحده كل ما نحن فيه من الاحـزان ؟

خليل حاوي :
الموت وتوازن الرؤيا

د. نذير العظمة

هل الانتحار هو نحر النفس أم نحر الجسد أم هو قتل لكليهما معا ؟!

وهل يقبل العقل الفلسفي الحديث فعل الانتحار بما يتعارض مع الاديان السماوية التي ترفض الانتحار وفكرته وتعتبره قتلاً للنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق . وإذا كان الانسان يقتل ويقتل في حروب مشروعة أو غير مشروعة فكيف يحرم عليه أن يحرر نفسه من جسده أو جسده من نفسه فيعود الجسد الى التراب والروح الى مصدرها الاعظم ؟ !

لكأن الانتحار هو حيوية فائضة تمحو الجسد الذي لا يقدر على تفنيتها واحتوائها ، حيوية تكبر عليه وتحطم هيكله .

وحياتنا الارضية تقوم على وحدة الجسم والروح . ان أي اخلال بهذه الوحدة يؤدي الى تحكم طرف بطرف وخروج المرء من جسده أو روحه مجازا او بالحقيقة .

حين نهمل الجسد نهمله على حساب الروح وحين نهمل الروح نهملها على حساب الجسد كلاهما قوت الآخر وقوته يحيا فيه وبه او لا يحيا .

والانتحار قتل للنفس إلا في احوال مخصوصة ، يتحرر فيها الجسد من قيود التراب ويحررها .

وإذا كان الانتحار الفلسفي واردا بالنسبة للعقل الحديث فما هو شان الانتحار الوجودي والحضاري ؟ !

خليل حاوي على ما نعلم اول شاعر عربي ينتحر ليس بدافع الفقر بل بدافع الغنى والفيض .

« هارت كرين » الشاعر الامريكي ينتحر احتجاجا على استغراق الحضارة في المادة وقتل شخصية الانسان .

الشاعر الروسي مايكوفسكي ينتحر ليسجل على ستالين ان شاعرا عظيما قد انتحر في حكمه وعهده . فهل يكون مثل هذا الانتحار عبثا ؟ !

وعندما ينتحر فنان أو مفكر يابانى احتجاجا على تجارب الطاقة النووية التي دمرت هيروشيما وناكاغازاكي هل يكون ذلك من باب قتل النفس التي حرم الله ؟ !

إذا كان القصاص حياة فلماذا لا يكون الانتحار بهذه الهيئة حياة للإنسان ؟ !

الانتحار في الحضارات المشرقية يكاد يكون فعلا نادرا بينما يرد كتقليد راسخ في حضارة الرومان عند النبلاء حين يصل احدهم الى نقطة اللا جدوى يقصد نفسه حتى الموت . ولم يغسل خيانة (بروتس) ليوليوس قيصر غير انتحاره .

اما الانتحارات الجماعية في تاريخ قرطاجة وصور وغيرها من المدن الفينيقية فانها تخرج من إطار الانتحار الفلسفي وتدخل في صيغة الانتحار الحضاري . عندما تسقط مدينة قرطاجة في يد الرومان إليس ذلك وجها من وجوه الانتحار لتلك الحضارة ؟ !

أوليس سقوط فلسطين سقوطا لنا وقفزاً في هاوية بلا قعر ؟ !

وعندما تسقط صور في يد الاسكندر المقدوني اليس ذلك شكلا من أشكال الانتحار لتلك المدينة ؟ !

وعندما تسقط بيروت او يسقط الجنوب في أيدي الغزاة الصهاينة على رأى ومسمع من الانظمة العربية البالية ماذا نسمي ذلك . اليس انتحاراً لهذه البنى الرثة ؟ !

في مثل هذا الاطار يمكن أن نتفهم ظاهرة انتحار الشاعر خليل حاوي وان نقبلها او نرفضها متعاطفين او منفرين .

حين يكون الموت تعبيرا عن الحياة فالانتحار على هذه الشاكلة كالقصاص حياة لأولي الالباب .

ترى كم من اجساد تتحرك بين العروش وغرف النوم بأرواح منتحرة ؟ !

اعتمدنا في هذه الدراسة على المجموعة الشعرية الكاملة لخليل حاوي دار العودة بيروت ١٩٧٢ .

مرتين اثنتين يأتي خليل حاوي على ذكر الانتحار في شعره الاولي في قصيدة « ليالي بيروت » .

يستهلها الشاعر بضمير المتكلم للجمع :

في ليالي الضيق والحرمان
والريح المدوي في متاهات الدروب
من يقوّينا على حمل الصليب ؟ !

وفيها يقف الشاعر قبالة المدينة كرمز للتناقض ، وينتقل من صيغة الجمع الى ضمير المتكلم بصيغة المفرد .

آه من نومي وكابوسي الذي
ينفض الرعب بوجهي وجحيمه
مخدعي ظل جدار يتداعى
ثم ينهار على صدري الجدار
وغريقا ميتا اطفو على دوامة
حرى ويعميني الدوار
آه والحقد بقلبي مصهر
امتص اجتر سمومه
ويدي تمسك في خذلانها
خنجر الغدر ، وسم الانتحار ،
رد لي يا صبح وجهي المستعار
رد لي ، لا ، أي وجه
وجحيمي في د مي كيف القرار
وانا في الصبح عبد للطواغيت الكبار
وانا في الصبح شيء تافه ، آه من الصبح وجبروت النهار .

القصيدة من مجموعة نهر الرماد التي نظمها الشاعر في بيروت وكمبردج .

ونحن لا نتعب انفسنا لندرك ان الشاعر يكتب عن بيروت لانه يصرح باسمها مدينة الذنوب والجريمة وهو الجبلي من ضهور الشوير سفح الضوء والشمس والبراءة .

ثم ينتقل في الخاتمة الى ضمير الجمع ثانية في صيغة المتكلم :

ابحر العمر مشلولا مدمى
في دروب هدها عبء الصليب
دون جدوى دون ايمان
بفردوس قريب

وما يهمنا هنا هو ان نأخذ ما يقوله خليل في هذه القصيدة بخصوص الانتحار على محمل الحقيقة لا على محمل المجاز ، ففي المدينة وتحت عبء الصليب والحيف الذي ينيخ الظهر لا يفكر الشاعر بغير الجريمة او الانتحار مخرجا من التناقضات التي تبهظ كاهل الانسان . او ان يبيع نفسه للوحش والثعلب في السوق ويمتلىء بشهوة الحس والجنس ونستكين فيه النخوة وينام نوم « دب قطبي » .

« كهفه منطمس أعمى الجدار » .

الشاعر في هذه المرحلة المبكرة من شعره كان يعاني ما يشبه الحمى أو الدار الذي يدفع اما الى قتل الآخر أو قتل الأنا ، خنجر بيد وسم الانتحار باليد الاخرى .

وخليل دون ريب شاعر مأساوي درامي يمارس حيوية وجودية مشرعة بالفكر ، حيويةتعبر عن نفسها بالصدام متجهة الى الموت .

أما المرة الثانية التي يذكر فيها الانتحار بل يصور رغبته فيه بشكل مفصل في قصيدة « وجوه السندباد » .

في « سوهو » مدينة اللذة والرقيق بكل أنواعه
في لندن يتخيل الشاعر نفسه شطرين
الأنا والآخر ، وجهان لشخصية الشاعر الواحدة . .

وهو يمشي وحـــده في لا مكان
وجهه أعتق من وجهي ولكـــن
ليس فيـــه أثـــر الحمـــى
وتحفـــير الزمـــان
وجهه يحكي بانا توأمان

في حدس الشاعر حيث تتوحد الأنا والآخر . حيث يتوحد الظاهر والباطن ؛ الذهول والمخيلة المبدعة .

يتســاءل خليل عن وجهه الآخـــر :

ولمـــاذا ساقني للجسر
حيث الموج اثر الموج يدوي يتداعى ؟!
حيث الدخان والضباب والبخار
كلهـــا تقـــزل حـــول الجســـر
حولي افعوانا ، اخطبوطا .

ثم يمضي الشاعر ليصور لنا رغبة الموت بالانتحار على جسر التايمز في مدينة لندن ؛ يهتف صوت الآخر قائلا :

« متعب انت وحضـــن المـــاء
مرج دائم الخضرة ، نيسان

أراجيح تغني وسرير
مخملي اللين شفاف حرير ،
وبنات الماء مازلن
على الدهر صبايا .
ربما كان لديهن
قوارير من البلسم ،
اعشاب ، تعازيم عجيبة
تمسح التحفز عن وجهك
تسقيه غوى سمرته الاولى المهيبة
لون لبنان وطيبة . »
متعب ، دوامة عمياء ،
هذا اللولب الملتف حولي ،
ذلك التيار دوني والدوار ،
متعب .. ماء .. سرير ..
متعب .. ماء .. اراجيح الحرير ..
متعب .. ماء .. دوار ..
وتلمست حديد الجسر
كان الجسر ينحل ويهوي ،
صور تهوي وأهوي معها ،
أهوي لقاع لا قرار
وتلمست صديقي اين انت ،
كيف غاب ؟
الضباب الرطب في كفي

وفي حلقي واعصابي ضباب
ربما عادت الى عنصرها الاشياء
وانحلت ضباب .

ومن عالم الصوت ينتقل خليل الى عتمة الرحم .. و « الوجهان »

وجـه الطفـل
الذي غص بالدمعة في مقهى المطار
ووجه الرجل الذي تغرّب في ضباب الحضارة .

ثم يختتم القصيدة بالوجه السرمدي :

الوجه الذي ربي في « بيت على الصخر تعمر » .

القصيدة هي بالدرجة الاولى وثيقة نفسية عن اعمق أعماق الشاعر وفي كلا القصيدتين « ليالي بيروت » ووجوه السندباد كشف عن ان فكرة الانتحار ليست غريبة على تفكير الشاعر خليل حاوي منذ مستهل حياته الشعرية الى مرحلة استكمال ثقافته العالية في كمبردج .

قد يعترض معترض بأن الشاعر يتكلم عن حالة رمزية فالشاعر ت.س اليوت في قصيدة الارض الخراب يتكلم عن الانتحار بالماء للفينيقي التاجر وخليل حاوي على جسر لندن في قصيدة وجوه السندباد كالشاعر الانجليزي يتكلم عن العام لا الخاص ، وبالتالي عن الموضوعي لا الذاتي .

الا اننا نعرف ان في « وجوه السندباد » يتحد الخاص بالعام والذاتي بالموضوعي وخليل بالاضافة الى كونه يتكلم عن تجربة ذاتية فهو يتكلم عن الاخرين والكلام عن الانتحار بالماء ليس زخرفا انه مجاز يعبر عن حقيقة ورمز لايخرج عن الحياة .

يود الشاعر ان يخرج من وجهه الذي حفرته الحمى الى سمرتـه الاولى ، وهي مرادف للبذرة الاولى والنبضة الاولى والبراءة في لغـة خليل القبلية والموت هو طريق الحياة والحياة الجديدة لاتمكن الا بالموت والانتحار الذي يقترن في ذهننا بالنهاية انه جسر في ذهـن خليل الـى السمرة الاولى التي اضاعها انه طريق الى البراءة .

اضف الى ذلك ان القصيدة تتكلم بضمير المتكلم المفرد الشاعر هـو الذي يتكلم عن نفسه لا عن فينيقي يبحر كما هو الحال في قصيدة الارض الخراب .

اما القصيدة الاولى التي اتى فيها خليل ذكر الانتحار بشكل مباشر فان الشاعر يقول :

ويدي تمســك خنلانهـا
خنجر الغـدر وسـم الانتحار

فالأنا هنا تتكلم مباشرة عن تأهب نفسي وقبول صريح لفكرة الانتحار على حين ان الاخر في قصيدة وجوه السندباد وجه خليل الاخر الـذي فيه شبه من وجهه الذي حفرته الحمى هو الذي يقوده في الضباب الى جسر التابعز ليتخلص من وجهه ويسترد وجه السمرة الاولى رمز البراءة والخصب . لم يكن خليل حاوي وادعا ولو انه لم يؤذ احدا في حياته الا ان سماته الفكرية وفعاليته النفسية كانتا تنمان عن العنف شخصية وعبارة والشواهد كثيرة في حياته واسلوبه ؛ فكره كان صداميا شعره كان صداميا لايحب الزغل ولايتحمله .

روى لي انه انزل مرة الشاعر سعيد عقل عن منبر الندوة اللبنانية لدفاعه عن العامية في محاضرة ، الآخرون ذكر بينهم اسماء حسين مروه وسهيل ادريس ارادوا ان يحاوروا ، ان يقنعوا ان يجبهوا الفكر بالفكر اما هو فلجأ الى العنف واسكت المحاضر .

وقد روى لي قصصا مشابهة جرت له مع أشخاص اخرين ، وكيف انه مزق بشرة الكياسة وجلدها ليخرج الى مواجهات صريحة .

وسواء صدق فيما يرويه او بالغ فان الرواية التي فحواها العنف وتعددها في ظروف واوضاع مختلفة تدل دلالة صريحة على ان خليل كان في صدام عنيف مع نفسه ومجتمعه وحضارته الا ان المصالحة ثبتت التوازن في مراحل حياته الاولى لكن المصالحة لم تدم وتكسرت الوجوه كلها عن وجه الموت .

لقد وجد الشاعر خليل حاوي اللغة التي كان يبحث عنها ، لكنه واحزناه لم يجد العنقاء ، شأنه شأن حي ابن يقظان ، لقد وقع على طرف من الحقيقة ولكنه لم يقع على الحقيقة كلها ، العقل وحده لايكفي فهو للنخبة ، الفلسفة وحدها لا تكفي فهي للخاصة ، الشعر وحده لا يكفي فهو لاصحاب الرؤيا ، والرؤيا لاتتاتى الا لمن مستهم آلهة الوحي وهم قلة .

لابد من النبوة الثورة لا بمعناها الميتافيزيقي بل بمرماها الاجتماعي والحضاري ، ان حضارتنا تنتظر النبي الثائر ، الانسان الذي يرفعها مرة اخرى من حما الطين الى مجد الالوهة .

بعد غياب عشرين عاما عن خليل ، كنت في العام الماضي على تماس معه قبل ان ينتقل الى العالم الاخر .

كان في قمة النجاح المهني كاستاذ ذي كرسي في الجامعة الاميركية في بيروت . لكن الشاعر فيه ظل فوق المربي ، سرقه الشعر من الفلسفة، وسرقة من العقيدة فاحتل قمة من قممه لم ينازعه فيها احد ، متميز الكلمة والعبارة ، متميز اللغة والشخصية ورغم ذلك فقد انتحر خليل اذا ؟!

قال لي خليل في احد لقاءاتنا بينما كنا نتحادث عن كتابه عن جبران خليل جبران ودراساتي عن المؤثرات الاجنبية في ادبه التي نشرتها في المعرفة : كلمة جبران في الحقيقة المتعالية ليست الكلمة التي تحتاجها حضارتنا ولا كلمة المغتربين الذين نحوا نحوه .

ان ما نحتاجه هو مجابهة الحقيقة وشروطنا الحضارية ، ان ينبع شعرنا منهما كما الماء من الصخر ،. وطبيعي ان خليل كان يصف في هذا شعره ومنحاه الابداعي .

الكلمة المنبثقة من الحقيقة هي التوازن الذي كان يساعد خليل على الاستمرار ، وحينما اختل هذا التوازن لم يجد خليل اي شيء يضيفه منذ العازر لعام ١٩٦٢ لقد ارتج على شيطانه الشعري مدةطويلة فلمتخرج منه نبوءة جديدة ، ووقف وحيه فلا « نهر رماد » تلمع تحته الجمر ، ولا « بيادر جوع » تحلم بالسنابل عادت الحضارة « تحت الجليد » و « العازر » لم ينهض من الموت ؛ اكل برص التخلف الرؤيا . ولم يسمع من القيامة غير سقوط الحجر لكنه عبر « الجسر » وعبرته الاجيال معه الى الفاجعة ، وتطوافه مع « عوليس » والسندباد انتهى بالموت .

كانت حياة خليل جافة كالحجر الذي كان ينحته في مهنته كمعمار قبل ان يعالج الكلمة ويدخل ملكوت الفكر ، جافة الا من طراوة الوحي والق النبوءة .

كاد يدخل ملكوت الحب ؛ لكن الحرية عنده كانت اغلى من الحب ، فلم يتزوج ولم ينجب ، ولو فعل لامسكت به مسامير اللحم والدم بطين هذه الارض امدا اطول ، حرية الحياة كانت ملكه ، حرية الموت وجهها الآخر .

لقد حاول الانتحار مرتين . فشل في المرة الاولى وبينهما ما ينوف على العام او اقل . عندما نقل الي الخبر عن محاولة انتحاره الاولى لم

اصدق ، وقلت للذي نقل الخبر : خليل انسان متوازن ومتماسك الشخصية . وانا استغرب محاولة الانتحار ، الا ان الناقل اكد لي دخول خليل الى مستشفى الجامعة الاميركية واسعافه من عملية الانتحار الاولى فلم يدركه الموت .

وبين المحاولتين كان لنا لقاءات عديدة في بيروت واحدة منها في شهور الشوير . خليل لم يتغير علي ، صلابة في الشخصية وكبرياء في الرؤية والفكر ، ووحدة اجتماعية وشعرية مطوقة ، والوحدة هي الجديد الذي دخل حياة خليل . كان في الماضي يشارك في الحياة الفكرية والشعرية العامة ، الا انه انقطع عن ذلك ، كان مطوقا بالمعجبين الا انهم في المرحلة الاخيرة اقتصروا على طلابه . لقد رفض محاولات عديدة لاخذ مقابلات ادبية منه لمجلات وصحف ممتازة . هل كان عنده شيء آخر يضيفه ؟! الم يقل كلمته وهل تردادها غير نوع آخر من الموت ؟!

بعد ان كان في مركز الضوء في الخمسينات والستينات وفي مقدمة مدرسة الشعر الحر ومن أبرز بناة القصيدة الحديثة ، يرفض قصيدة النثر كبدر شاكر السياب ويعتبر تطورها في جيل السبعينيات والرواد من قبلهم ان هي الا بدعة لا تمت الى الاصالة وليست ممثلة للحداثة الحقيقية .

ذكر لي مرة رغبته انه كان يمكن ان يدلي بدلوه في معركة الشعر الحالية لو ان هناك مجموعة من الشعراء الحقيقيين تتعاضد وتتساند لكبح هذا الطوفان من الزبدالذي يسمونه شعرا ؛ الا انالكبرياء ؛ ورؤيا البطل المستحكمة في شخصيته وشعره ، والوحدة المطوقة منعته من ان يكون معاصرا للمد الاخير من الحركة الشعرية التي كان من اهم مؤسسيها . ليس انتاجه الشعري فقط بل قراءاته من الشعر المعاصر كانت محدودة في آخر سنواته .

لم تكن مأساة خليل مأساة عاطفية فانتحاره لم يكن لغزا في المرة الاولى ، لقد اختل توازن الذات مع الحضارة فاجتاز الشاعر العتبة بخطوة ناقصة عاد الينا بعدها ببنية مهزوزة لا تستطيع ان تستعيد التوازن المفقود .

انتحاره الناجح في المرة الثانية وقتته المأساة القومية والاجتياح الاسرائيلي ، ففي الاسبوع الاول من احتلال الجنوب اللبناني تم انتحار خليل في شقته في راس بيروت حيث قضيت السنتين الاخيرتين .

شفيق عطايا مواطن خليل من ضهور شوير نقل الي خبر انتحاره الثاني ، ولم يكن يعرف الخبر صبيحة اليوم غيرنا نحن الاثنين وام خليل وشفيق شاعر ممتاز بالانجليزية ، كان وجهه دمعا كله يشهق بالبكاء ويشرق وهو ينقل الخبر .

ابان الاجتياح في الايام الاولى كان خليل يقول لشفيق : كيف يمكنني أن أواجه طلابي ومواطنيّ بعد هذا الاجتياح ، كيف يمكن ان اقف منتصب القامة ولم يخف أحد من العرب لنجدة الجنوب وانا شاعر القيامة العربية؟!

هذه هي بالضبط الشرارة التي اشعلت فتيل الانتحار الثاني لخليل. الا ان الاسباب العميقة دون شك كانت وجودية تتعلق ببنيته النفسية والفكرية .

وحين دخلت الى شقته حيث انتحر بأن اطلق جفت صيد على راسه لاحظت كيف حرص ان يجلس في « المشرقة » اسطوح بيته المشرف على الجامعة الاميركية والبحر الابيض المتوسط ، قرب البالوعة لينزف الدم ويتسرب منها حتى لا يعذب أمه بالتنظيف ، لكن اثر الدم ورائحته كانا قويين بعد اسابيع من غسل المكان .

حي بن يقظان في قصة ابن طفيل المشهورة ، حي الذي وصل الى الحقيقة الالهية عن طريق العقل لا عن طريق النبوة يعود من الجزيرة بعد ان عرف عن طريق سلمان وابسال ان سكانها العامة بحاجة الى الاستعارة الحسية للوصول الى الحقيقة ، العقل وحده لا يكفي ، اننا بحاجة الى النبوة الثورة .

وخليل حاوي يعود من جزيرة الحياة الى مملكة الموت بعد ان يدرك أن نبوءته الشعرية بالقيامة العربية لم تحققها الظروف التاريخية الراهنة وان الشروط القومية والحضارية لشعبه هي المسؤولة عما حدث وكذلك نبوءته ، وخليل بين النبوءة وعدم تحققها خطا الخطوة الكاملة الى الموت ليحقق تــوازن الرؤيا .

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



بحثاً عن التاريخ الحقيقي للعرب

أحمد يوسف داود

- ١ -

ببساطة ، مايزال العرب يجهلون الى الآن تاريخهم الحقيقي . ويجهلون ايضا اهميته الجوهرية المستمرة في تاسيس الحضارة ، وتوجيهها علميا وفلسفياوروحيا وفنيا حتى القرن الخامس عشر الميلادي على الاقل .. وهو مطلع عصر النهضة الاوربية التي قامت على ذلك التاسيس ونمت بدفع ذاك التوجيه . ومن واجب العرب تجاه انفسهم وتجاه العالم الآن أن يعيدوا اكتشاف تاريخهم في ضوء معطيات العلوم الحديثة ،

ضمانا لمستقبلهم ومصيرهم ، ومساهمة منهم بانقاذ الحضارة الانسانية من الانهيار الذي يبدو ان الغرب الليبرالي يدفعها اليه بسرعة متزايدة، مع ازدياد غرقه في « عبادة التكنولوجيا » التي تحاول جر العالم الى مستنقع الابتذال الاستهلاكي التعفني ، ولو ادى ذلك الى دماره وافنائه !

على العرب ان يعيدوا النظر فيما فعلوه وفيما يمكن — ويجب — أن يفعلوه .. نعم عليهم ذلك ! هذا ما يقوله لنا بيير روسي استاذ الفلسفة بالجامعات الفرنسية في كتابه الهام « مدينة ايزيس — التاريخ الحقيقي للعرب »(١) .

- ٢ -

من هم العرب ؟! ومتى يبدأ تاريخهم وحضارتهم ؟

ان المؤرخين عموما يقصرون بحثهم في تاريخ حضارة العرب على المرحلة الاسلامية التي كانت — في الواقع — ذروة العطاء الحضاري الشرقي ، والتي ابتدأت في القرن السابع الميلادي مع ابتداء دعوة النبي العربي العظيم في مكة ، حيث تلا ذلك — وبسرعة مدهشة — تأسيس اعظم امبراطورية عرفتها القرون الوسطى ، واكثرها قوة وتقدما في مختلف المجالات .

اما ما قبل المرحلة الاسلامية فلا يشكل تاريخ العرب — حتى في نظر مؤرخينا انفسهم — الا مجموع حركة قبلية بائسة ينحصر مجالها في شبه الجزيرة العربية ، ويستطيل — لفترات وجيزة جدا — مرة الى تدمر على يد بعض القبائل التي اسست فيها مملكة واسرة حاكمة

(١) صدر في باريس عام ١٩٧٦ وترجمه الى العربية — ترجمه ركيكة وسيئة للاسف — فريد جحا . واصدرت الترجمة وزارة التعليم العالي بدمشق عام ١٩٨٠ م .

اشهر افرادها زنوبيا ... ومرة اخرى الى وادي الاردن حيث اقام الانباط العرب مملكتهم في البتراء .. واخيرا الى دمشق والحيرة في وقت واحد حيث انشئت امارتا الغساسنة والمناذرة .

وفيما عدا ذلك فالصمت مطبق تقريبا على اصل هذا « الشعب » الذي يخرج فجاة من غبار البوادي وعلاقات الثار والمنازعات القبلية والتخلف البدوي كي يهيمن على اكبر رقعة من العالم القديم المعروف آنذاك ويصبح الوارث الحقيقي لحضارة الشرق ، التي صرنا نعرف اليوم انها تضرب في اعماق التاريخ الى حوالي منتصف الالف الرابع قبل الميلاد .

انا ـ والحال هذه ـ امام مفارقة ليست محيرة فقط ، بل هي ـ اذا شئنا الدقة ـ مفارقة غير مقبولة ولا معقولة . وانها لتضعنا ، حقيقة ، لافي مازق معرفي فحسب بل ايضا تربط كينونتنا ومصيرنا بلعبة مصادفة لا يحتملها منطق التاريخ بصورة من الصور .

واذا كان مؤرخونا المسلمون الاوائل قد اخذوا في نظرتهم الى تاريخنا بذلك القصر المبتسر الذي ورثناه عنهم ، فقد كانت لهم اسبابهم ومبرراتهم الكافية .

فهم من جهة كانوا يعملون على تكريس التوحيد الاسلامي الذي كان نقلة نوعية خارج كل التطور الحضاري السابق عليه . وكان لزاما عليهم ان ينهجوا من اجل ذلك نهج الادانة والرفض والتجاهل لكل ماسبق الاسلام من عقائد باستثناء عقيدة الاحناف ، وباستثناء اليهودية والمسيحية اللتين نص القرآن صراحة على انهما ديانتان سماويتان .

ومن جهة ثانية لم يكن لديهم اي اطلاع على الحضارات القديمة اذ كانت هذه قد بادت وانطمرت شواهدها في التراب . ووصلتهم بقاياها

على شكل طقوس مسطحة تتناقض مع فكرة وحدانية الاله المطلق المتعالي وهو مادعاهم الى ادانتها .

واختصارا فان المؤرخين المسلمين الاوائل لم يكونوا قادرين على القفز فوق شروط عصرهم ومستواه العلمي / المعرفي العام .

غير ان العصر الحديث ـ بمناهجه العلمية المعاصرة ووسائله التقنية المتفوقة ـ لم يكشف فقط عن الآثار المادية لحضارة شرقنا القديم ، بل كشف ايضا عن وحدة الاصل بين لغتنا العربية ولغات منتجي تلك الحضارة منذ ان بدات . ويدل هذا ـ في الحدود الدنيا ـ على « وحدة الجنس » والمنشأ بين اولئك البشر وبين العرب ، كما يدل على وحدة الثقافة خلال تطورها في سياق العملية التاريخية الكبرى التي عرفها هذا الشرق عموما .

ورغم ذلك فمازال المؤرخون ـ الغربيون الباحثون منهم ، وتلامذتهم العرب الذين ينقلون عنهم لا اكثر ـ يقيمون نفس القطع الحاد بين المرحلة الاسلامية وبين ما سبقها لدرجة ان اكثر المتحمسين منهم لهذه المرحلة يكاد لا ينسب للعرب الا فضل « الحفاظ على العلوم والفلسفة اليونانية ثم نقلها الى أوربا كي تبني عليها حضارتها الحديثة » . وبالتالي فان الفهم المبتسر لتاريخنا واصولنا يكرس بالتجاهل المتعمد للحقائق التاريخية التي تثبت نفسها الآن بالوثائق الصريحة . وهذا امر يجب ان يدفعنا الى اكثر من مجرد الشك في دوافع الباحثين الغربيين ومقاصدهم من ورائه . انه يجب ان يدفعنا الى كشف تلك الدوافع والمقاصد ، ثم الى اعادة بناء صورة شاملة للصيرورة الحضارية في الشرق،انطلاقا من معطيات العلوم الحديثة وبناء على افضل مافي المناهج الاوربية ذاتها . فرؤية حركة التاريخ في كليتها وشمولها هي وحدها القادرة على تحديد موقع الذات في العالم واهمية فعلها فيه .

- ٣ -

نحن اذن نعتقد أن ثمة قصدية مفرضه تحكم عمل المؤرخين الاوربيين حين يبحثون في تاريخنا . ونعرف أن متعلمي التاريخ ودارسيه عندنا هم تلاميذ أوفياء ـ بنسب متفاوتة ، وبحكم الضرورة لاولئك المؤرخين غير المبرئين .

وكي نفهم دوافع الغربيين ومقاصدهم التي نشير اليها لابد ان نعرف حقيقة المناخ الثقافي الذي يعملون فيه ، وبالتالي لابد ان نرى ما يسمى « المشروع الثقافي الغربي » في كليته منذ بدأ على يد ديكارت في مطلع عصر النهضة ، وان نحدد مفاصله ومرتكزاته الاساسية بالقدر الممكن في هذا المقال .

بدئيا ، يجب علينا ان نتذكر ان كل ثقافة توقع ابناءها في أسر معاييرها وأطرها الخاصة بحيث يصبح من الصعب جدا عليهم ان يفكروا بطرائق متحررة الى حد كاف من تلك المعايير والاطر . بل ان بعضهم لينتابه الخوف والقلق حين تراوده فكرة وجود ثقافة ـ أو ثقافات ـ اخرى ، ربما كانت مفاهيمها اكثر نجوعا في تحقيق التوازن الروحي تجاه المعضلة الكبرى التي تواجه الانسانية ، وهي معضلة البقاء .

ونحن نعرف انه منذ تأسست المجتمعات وانقسمت الى فئات وشرائح وطبقات صار لكل ثقافة « تعبيراتها الداخلية المتمايزة » عن هذه الانقسامات . وصارت التعبيرات الخاصة بالفئات والطبقات السائدة هي التعبيرات التي تطبع مجمل ثقافة المجتمع بطابعها . وتعيد بالتالي انتاجها ما امكن لمصلحة تلك الفئات والطبقات . وهي مصلحة أضيق بكثير من ان تكون مصلحة المجتمع ككل ـ هذا اذا لم تكن ضدها ونقيضها في واقع الامر ـ ناهيك عن ان تكون مصلحة الانسانية عموما على اختلاف مجتمعاتها وانماطها الثقافية !

ويتميز العصر الحديث الذي يتحدد ابتداؤه عادة في منتصف القرن الخامس عشر ، بنهوض الطبقة البرجوازية الغربية وباستشراء هيمنتها لا على مجتمعاتها فحسب بل على كل المجتمعات الانسانية تقريبا قبل العقد الثاني من هذا القرن .

وهذه البرجوازية هي التي صنعت المرحلة الحضارية الحديثة ، وأنتجت بالطبع ثقافتها النوعية الخاصة بها . وتدعيما لمصالحها فانها تعمل باستمرار ودأب على تعميم تلك الثقافة من خلال فعالية السوق الاستهلاكية ، وعلى جعلها الثقافة الوحيدة البديلة لثقافات النوع كله .

ولقد حكم انتاج هذه الثقافة منهج خدم ـ ويخدم ـ طبيعة نشاط البرجوازية خلال تطورها ، بحيث كانت دائما غطاء ايديولوجيا لذاك النشاط القائم على الابتزاز والنهب ، وتدمير الانماط الاجتماعية غير البرجوازية ، لا كأشكال وبنى فحسب بل كبشر ايضا وبمختلف الوسائل الحربية منها وغير الحربية .

والمعروف ان هذه الثقافة ولدت نقيضها خلال حركة منتجيها . وتمثل هذا النقيض في الماركسية كنظرية في المعرفة وكايديولوجيا اجتماعية ولكننا هنا معنيون بالثقافة الام : الثقافة البرجوازية الغربية الليبرالية ، بسبب فعلها الكثيف المباشر في حياة منطقتنا وفي ثقافتها واطرها المجتمعية الخاصة .

لقد قام المشروع الثقافي البرجوازي الغربي منذ البدء على مرتكزين تاريخيين اساسيين :

الاول : هو اعتبار اليونان وروما المنبع الحقيقي للمرحلة الحضارية الغربية بكل فلسفاتها وعلومها وشرائعها ، وبذلك تم اسقاط الانجازات الحضارية في الشرق القديم من الحساب ، كما

اسقط دور الحضارة العربية الاسلامية التي كانت ، كما قلنا قبلا ، آخر وأعلى اشكال الانتاج الحضاري الشرقي .

الثاني : هو الاخذ بالنظرية العرقية استنادا الى تقسيم لغوي اساسا . وقد جرى التركيز على عرقين اثنين : السامي ، والآري او الهندو ــ أوروبي .

اما السامي فلا يتمتع الا بقابليات محدودة جدا في مجالات الفلسفة والعلوم ، وبالتالي فهو عرق غير عبقري ولا مبدع !! وأما الآري فقد تميز دائما بالمقدرة الابداعية وبالعبقرية الفذة اللتين كانتا نتيجة اصطفاء طبيعي فطري !!

والى هذا « العرق المبدع » تنتمي أوربا كلها ، بما في ذلك الشعبان / الاصل : اليونان والرومان . ولقد تولد عن هذين المرتكزين اتجاه عام شكل الخلفية الكلية للثقافة البرجوازية الغربية ، وعزز طابعها العنصري الشوفيني ، وربطها ربطا شاملا بالقصد الاستعماري الذي لازم صعود تلك البرجوازية واتساع هيمنتها .

وذلك الاتجاه هو ما يعرف بنظرية « المركزية الاوروبية في الثقافة » حيث تعتبر كل ثقافة غير أوربية مجرد تجربة خارج الثقافة الحقيقية التي هي الثقافة الاوربية ! وحيث تعاير حضارات النوع كله وفق معايير الحضارة الاوروبية الحديثة فيحكم عليها بالتالي انها قاصرةومتخلفة!

وقد اخذ المفكرون الغربيون المنجرفون داخل هذا الاتجاه العام ، دائما ، بفكرة وجود « معجزتين » معرفيتين اثنتين في التاريخ :

ــ المعجزة الاغريقية في الفلسفة والعلوم . وهي معجزة حققها الشعب الاغريقي بحضارته التي كونت ذاتها بذاتها فلا سابق لها شبيها بها ! فهي اذن نتاج عبقرية العرق المتميز المكتوب له بفضل خصائصه الاستثنائية ان يسود العالم وان يرثه ايضا !!

ـ المعجزة العبرانية في التوحيد . اذ تمكن « شعب ! » صغير عجيب ذو عبقرية استثنائية ايضا من « اكتشاف التوحيد » خلافا لكل معطيات البيئة التي عاش فيها ولتأثيرات كل الشعوب التي تعامل معها !! وهذا الشعب هو « العبرانيون » الذين كانوا « حملة لواء الوحدانية » وسط بحر من الشرقيين الوثنيين ، خصوم التوحيد !!

وقد تبدو نسبة هذه المعجزة الى « شعب » يصنف بين الشعوب السامية فكرة مخلة بجوهر نظرية المركزية الاوربية ... لكن علينا ازاء هذه الحالة ان ناخذ بعين الاعتبار جملة من الامور الهامة التي احاطت بصياغة المشروع الثقافي الغربي وبتطوراته واستكماله .

ان أول هذه الامور هو موقع البرجوازية اليهودية الصهيونية وقوتها الراسمالية ضمن الكل البرجوازي منذ نشوئه وحتى اليوم .

والثاني هو الموروث الديني الغربي الذي اعتبر التوراة المتداولة ـ منذ وقت مبكر ـ كتابا مقدسا ، واصلا للمسيحية بشكل عام . وهذا الامر ، اضافة لكونه على جانب كبير من التعقيد ، يعكس ايضا الخلفية الدينية التاريخية لصراع المصالح بين الشرق والغرب منذ القرن الرابع الميلادي . ففي هذا القرن الذي شهد انتشار المسيحية في كل ارجاء الامبراطورية الرومانية ـ وكانت روما قد اكتسحت كل حوض المتوسط واخضعته للسلب والنهب الابتذالي التعفني منذ القرن الاول ق.م ـ قام الاباطرة « بوضع يدهم على المسيحية » التي هي ديانة شرقية ، ونقلوا مركز البابوية من انطاكية المقدسة الى روما ، واعلنوا الحرب على المسيحية الشرقية التي مثلها النساطرة العرب . فكانت هذه الحرب في حقيقتها بداية الحروب الصليبية ضد الشرق . وهي الحروب التي لم يتوقف الغرب عن شنها عليه بمختلف الاشكال حتى هذه اللحظة .

وقد كان اعتماد التوراة كتابا مقدسا واصلا للمسيحية واحدا من أساليب هذه الحرب وحلقة من حلقاتها . ومن جهة اخرى ، فلأن

العبرانيين لم يعودوا موجودين كـ « شعب » ولأن « روما/الاصل » قد استولت على المسيحية واخضعتها لمصالح الغرب ... لم يكن ثمة بأس لدى منتجي المشروع الثقافي الغربي من الاخذ بفكرة « معجزة التوحيد العبرانية » وان نسب العبرانيون الى « الاقوام السامية ! » .

على أن الاهم هو ما اسفر عنه الامران السابقان حين وضعت «الخلفية الدينية للغرب » مجددا في خدمة المصالح الراسمالية . فقد انشئت اخيرا دولة اسرائيل بعد سعي دؤوب متواصل من قبل الجناح البرجوازي اليهودي القوي ، وأسند لها دور استراتيجي أساسي في مخططات الهيمنة على الشرق .. وكان لابد لكثير من الاعتبارات أن تفرض نفسها ــ ومنها هذا التجاوز العرقي ! ــ خلال هذه العملية الضخمة الطويلة الامــد ، والمنفذة بإحكام تام .

وعليه ، لم يكن ثمة إشكال بالنسبة لمنظري المركزية الاوروبية في أن يسندوا اكتشاف التوحيد الى العبرانيين ، خصوصا وأن ذلك يساهم في تجريد الشرق من هذا الفضل ، وفي ترسيخ احساسه بالاحباط وضآلة الفعالية . كما ان مسألة التوحيد برمتها ، وجميع القيم المبنية عليها ، لم تعد تعني اي شيء بالنسبة للثقافة البرجوازية الغربية ذات الجوهر الميكافيلي والديناميكية البراغماتية .

اذن ، ان ما يمكن استخلاصه هنا هو أن اسقاط المشروع الثقافي الغربي لحضارة الشرق من حسابه كان لهدف احباطي وابتزازي ينسجم مع مصالح منتجي ذلك المشروع في الحاصل الاخير .

غير أن سياق حركة الحياة يفضي دائما الى أن ينتج النقيض نقيضه . فوقوع الشرق في مجال الفاعلية الاستعمارية ادى ، كما ذكرنا وبتأثير عوامل شديدة التنوع ، للكشف عن آثار حضارته التي اخذت تفـرض عاما بعد عام مزيدا من الاثارة والادهاش للعالم كله ، ومزيدا من الارباك العلمي والايديولوجي لاساطين المركزية الاوروبية النشطين .

ولم يكن بامكان هؤلاء الا ان يبدوا اعجابهم بهذه الآثار ومدلولاتها ، غير انهم ، بحكم دورهم كمفلسفين ومؤدلجين للنهب الرأسمالي ، اخذوا يعملون جاهدين على تطويعها بحيث لا تتجاوز معطياتها « الخط الاحمر » للمعجزتين سابقتي الذكر . وعليه فقد صار يجري بحث حضارة الشرق القديم على اساس بعثرتها في « وحدات » مستقلة ليس بينهما اكثر من تأثيرات متبادلة محدودة ، وعلى اساس انها حضارات فوق بدائية ، وبلا علوم ولا فلسفات ولا ديانات وحدانية ، حتى يظهر «المنقذ» الاغريقي ، و « المخلص » العبراني ، وعندها فقط تبدأ البشرية ابداعها الحقيقي !!!

- ٤ -

لقد كتب الغربيون حتى الآن ما يكاد لا يحصى من المقالات والابحاث المطولة والكتب حول حضارة الشرق . ولكنهم في كل ذلك لم يخرجوا عن حدود تطويع منجزات تلك الحضارة بالكيفية التي اشرنا اليها .

ونظراً لمقدرتهم على فرض هيمنتهم الثقافية على العالم الثالث خصوصا — ومنه نحن بالطبع — فان فهمنا لتاريخنا العربي ظل لا يتقدم خطوة واحدة عن شكله الكلاسيكي المبتسر ، والمستند الى اصول مبتورة ضائعة في رمال الصحراء .

غير ان الاستاذ بيير روسي الذي نوهنا بكتابه الجديد في مطلع هذا المقال استطاع ان يخرج نهائيا خارج لعبة « التجهيل » المتعمد تلك وان يحاول رسم صورة كاملة لمسيرة الحضارة منذ تكونها في الشرق على يد العرب حتى انتقالها بعد خمسة آلاف عام على الاقل الى اوربا الغربية واستطالتها : اميركا .

ان الاستاذ روسي يبدو في كتابه هذا معنيا بالحقيقة لذاتها . ولذلك فهو يحرضنا بحماس على التخلص من تبعيتنا المعرفية العجزية لـ

« اساتذتنا ! » الغربيين ، وعلى ان نقوم بتحرير تاريخنا من قبضتهم عن طريق كتابته بانفسنا ومن منظور تطوري شمولي كلي . انه يقوم نيابة عنا باتهام أولئك الاساتذة وفضحهم ، وبفضح الثقافة البرجوازية الغربية باصولها ومرتكزاتها ومعجزاتها ومقاصدها دون اية مواربة . ثم يحاول ان يقدم لنا « نموذجا » ــ ان صحت التسمية ــ لقراءة تاريخ الشرق الذي هو تاريخنا ، مستخدما في ذلك معارفه التي تبدو موسوعية الى حد كبير ، ورؤيته النفاذة التي لا تهتم بالتحليل فحسب بل تستطيع أيضا اعادة تركيب المعلومات بعد استقرائها واستنطاقها في «كل» مدهش بتناغمه الداخلي وانسجام اجزائه التي نراها في « امكنة » اخرى فتبدو لنا كأنما هي حطام لا يصلح لشيء .

ان الجراة التي يتميز بها السيد روسي ليست جراة الرجل الاستعراضي الذي يريد ان يثير حوله زوبعة مجانية من الاهتمام ، بل هي جراة الباحث المخلص للحقيقة اذ يراها ماثلة تحت سمعه وبصره فلا يملك الا ان يدافع عنها بكل طاقاته وامكاناته .

ولو لم يكن لهذا الرجل من الفضل فيما كتب الا هذه الجراة لكفاه ذلك فعلا !

– ٥ –

يتألف كتاب الاستاذ روسي من مقدمتين اثنتين ــ احداهما خاصة بالطبعة العربية ــ ومن عشرة فصول هي على التوالي :

١ ــ من الاهرامات الى كنيسة آل ميديتشي
٢ ــ بحار خمسة ، انهار خمسة ، امبراطوريات خمس .
٣ ــ السيارات السبع
٤ ــ الدروس الالهيــة
٥ ــ علم الفلك وفن الحياة

٦ ـــ الملك الآرامي الكبير
٧ ـــ البطالة والسلوقيون ، وارثون متنافسون واعداء
٨ ـــ روما مستعمرة مصرية
٩ ـــ بيزنطة والحروب المقدسة
١٠ـــ سلام الاسلام .

ورومي في هذه المقدمة الخاصة بالطبعة العربية يأمل ان يبدا الشرق ـ ويقصد شرقنا العربي ـ (اكتشاف حقيقة تاريخه وثقافته اللتين(٢) لولاهما لغدا الغرب فارغا) . ويؤكد ان تخطيطا متعمدا لتخفيض قيمة حضارة هذا الشرق قد مارسته جامعات الغرب ومدارسه (رغبة منها في تمجيد أثينا وروما) وهما مدينتان أنشاءهما الشرق وسكنهما الشرق ومنحهما بالتالي ثقافته (التي اصبح العرب اليوم ورثتها المخلصين) .

وهو يأمل ايضا (أن يلغي المثقفون العرب هذا الدجل العلمي الذي بات تاريخهم ضحية له) كما يندد بحزم بما فعله علماء الغرب الموسوعيون حيال ذلك التاريخ ، وبما استندوا اليه من أساطير توراتية ومخطوطات مزعومة ومشبوهة .. موضحا ان ذلك كله (ادعاء وابتذال احكام مسبقة ضد الشرق ، وانها روح استعمار أبوي تحاول فرض نفسها ..) بالدجل والتجهيل والاستهتار بالحقيقة .

أما في المقدمة العامة للكتاب فيقول : (اننا حين نعيد الى آسيا والى الوطن العربي مكانتهما الحقيقية ، وعندما نؤكد بشرف ابراز دورهما في اعداد ثقافتنا فاننا نتمنى ، من وراء العتبات الاثينية والرومانية ، اعادة صلات القربى التي ضمت أوربا الى مجموعة واحدة من المساحات التي كانت أوسع مما نتصور ، وحيث سنقرا هناك بشكل أجود جميع سطور

(٢) الصحيح : اللذين .

مستقبلها . ان اوربا ليست مركز العالم ولا مرآة العاهل الفاضل . ذلك انها لا تمثل — وهي ابنة الشرق الافريقي والآسيوي ، وفي محيط الزمان والمكان هذا — سوى منطقة تتمرس وتتدرب « فيها » قوى كانت تجذبها، مثلما كان القياصرة يتدربون ذات يوم) في منطقة الشرق العظيمة !

- ٦ -

وفي الفصل الاول من الكتاب يطرح روسي منهجه لا في النظر الى تاريخ العرب وحدهم ، بل في النظر الى تاريخ الحضارة ككل ، ولكن من خلال التأسيس العربي لها منذ البدء ، ومن خلال دفعهم وتطويرهم وتوجيههم لتطوراتها ، الى حد انه يهدم نظرية المركزية الاوربية كاملة على رؤوس اصحابها .

ان روسي يقدم المنهج والنتائج بهذا الفصل في سياق موحد ، ثم يعود في الفصول التالية الى تقديم الادلة على استنتاجاته بالقدر الذي يراه ضروريا من التفصيل .

انه يرى الحضارة تطورا لا انقطاع فيه ، مستمرا في حيز معين من المكان يمتد من مضيق باب المندب الى الهند ، ومن القوقاز وحوض الدانوب الى ليبيا . وهذا الحيز يشكل مثلثا يضم اساسا بلاد العرب والهضبة الايرانية وآسية الصغرى وتقع على طرفه الغربي بلاد اليونان وايطاليا اللتان تدخلان متأخرتين جدا الى مجال الفاعلية الحضارية وكتلميذتين صغيرتين للشرق العربي العظيم الذي يستمر في طبع ثقافة المثلث بطابق ، في عملية تطور كبرى تظل قائمة حتى يتم انتقال مركز الحضارة الى أوربا في القرن الخامس عشر .

وروسي كما نرى يغفل هنا بحث الحضارة في الصين وفي اميركا الجنوبية والوسطى ولا يبحث ما قدمته كل منهما للحضارة الانسانية .

وربما كان ذلك عائدا الى حقيقة أن الحضـارة الغربيـة الحديثة هي في الواقع بنت حضارة هذا المثلث ، وأن تأثيرات الحضارتين الاخريين كانت ضئيلـة جـدا عليهـا .

ومنذ مطلع هذا الفصل بكشف حقيقة التقسيم العرقي ما بـين سامي وآري ، هذين المصطلحين اللذين (ليسـا شيئا ولا يدلان على شيء) فالمصطلح « سامي » صاغه لاول مرة العالم اللغوي الالماني شلوتسر عـام ١٧٨١ م . وسرعان ما قوبل هذا المصطلح بمصطلح مناقض هو « الآري او الهندو اوربي » . وكان هذا العمل منسجما تماما مع النظرة العرقية التي هي بالتأكيد ، وبشكل حاسم ، مفتاح تاريخ الغرب .

(بيد أنه لا شيء في ميدان الحقيقة يفرض تمييزا ، سليما أو مريبا ، بين الآريين والساميين) و (انطلاقا من الوثائق والمصادر والمواد التي تحت تصرف العالم يبدو انه من المستحيل البرهان على وجود شـعوب سامية واخرى آرية ، وبالاحرى اعطاء الحدود والفروق الخاصة بينها) وليس في التاريخ (انسان ما ، أو ثقافة ما ، أو مجتمع ما ، قد طالـب بهذا الارتباط بالمصير السّامي أو الآري) !

إن مصطلح « آري » هو اختراع بسيط وصاف (أما الثاني فهو مشتق من سام بن نوح وهو شخصية اسطورية) ولقد سكت الغربيون جميعا عن هذه اللعبة ، (والله وحـده يعرف الاسـباب السيئة التي استطاع ذلكم التمييز بين الساميين والآريين سترها بالاستعانة بمعطف نـوح) .

وبعد تفنيد الخلط واللاعلمية في هذين المصطلحين اللذين لم يتفق « العلماء » ابدا على محتواهما يقول : (إن الامر سيكون بسيطا جـدا فيما لو اننا تكلمنا بدلا عن الساميين ، الابطال المخترعين مـن أصل خيالي .. لو اننا تكلمنا عن العرب ، ذلكم الشعب الحقيقي والذي يمتلك

وجوداً اجتماعياً مستمراً ، وجودا ثقافيا ولغويا يعطي حيـاة وتوازنا لهذا البحر المتوسط منذ عدة آلاف من السنوات) .

وروسي لا يطلق هذا الراي جزافا ، فبعد ان يحدد المثلث الـذي تفجرت فيه الحضارة وازدهرت يقرر (ان لغة واحدة مكتوبة ومتخاطباً بها قد انتهت الى فرض نفسها وتغطية هذا المجموع الكبير : إنها اللغة الآرامية ــ والإغريقية تابعتها والملحقة بها ... ــ ثم تطورت الآرامية منذئذ طبيعياً ودون معارضـة الى اللغة العربية التي وجدت نفسها منـذ ذلك الحين وارثة الماضي الآرامي والكنعاني والحثي والبابلي. هاهو ذا المعيار الدقيق للثقافة العربية ، أم الثقافـة الهلينستية والموحية بهـا والتي صاغت شكلها وعقلها وقوانينها . ان العرب والاغريق يتواصلون ويتوالون لإعطائنا ما نسميه « الحضارة » التي هي كما نرى شرقية بمقدار ما هي غربية ، وسامية بمقدار ما هي آرية ، وعلى انها واحـدة ولا تتجزأ في جميع اقسامها ، سواء كانت روحية أم ماديـة) .

وهكذا يهدم هذا الباحث دون اي عناء احد مرتكزي نظرية المركزية الاوربية بما يلزم لذلك من الجراة العلمية الكافية لرجل لا يريد ــ تحت اي ضغط ــ أن يخون عقله وعلمه ومعرفته !

اما المرتكز الآخر : وهو ان روما واثينا كانتا « الاصل » الذي انبثقت منه الحضارة الاوربية المعاصرة فانه يبادر الى هدمه بقوة اكبر معيـداً حجم كل دور الى حقيقته والى صاحبه . إنه يقول في خاتمة فصلـه الاول : إن العرب أصلاً هم الذين (غزوا ثقافياً الغرب الاوربي مدخلين إليه دياناتهم وفلسفاتهم وذوقهم الجمالي ، وإنها لمحاولة واسعة كـان حلفاؤها والوسطاء فيها : الهيلينية وفرعها الاتروسكي ، وهما خميرة المجتمعات الإيطالية ، والى الهيلينية وحدها كان يعزى خلال مدة طويلة من الزمن تشابه الناس الثقافي هذا .. دون الانتباه الى أن الإغريق لـم

يكونوا أبداً سوى شرفة وملحق لبناء العرب في الشرق ، ذلك الامر الذي راح اليونانيون انفسهم يعترفون بـه بصورة كاملة . ولكننا بصـورة اعتباطية كنا يونانيين اكثر من اليونان) .

وسنرى فيما بعد كيف يعالج هذه المسـائل بشمولية وموسوعية نافذا الى جوهر ادلته دون ان يرهق قارئه بمجادلات فارغـة حـول القشور التي لا تسبب غير الإرباك .

وإن القارىء ليكتشف فجاة ان « المعجزة الإغريقية » المزعومة ليست في الحقيقة إلا محاولة فهم وشكل تعبير ، من قبل اليونان ، عن « المعجزة الاصل » التي عرفوها في الشرق : « المعجزة العربية » !

وإنها لآراء تصدمنا نحن العرب انفسنا ! وروسي يعرف ذلـك ، ويدرك الى اي مدى كنا ـ نحن تلاميذ الغرب ذي الثقافة المفرضة ـ ضحية لتجهيل « علمي ! » مخطط ومنظم ؛ وهو يشرح كيفية هـذا التجهيل ووقائعه وسيرورته بتكثيف يكاد لا يمكن اختصاره .

لقد قامت الكنائس الرومانية منذ القرن الرابع بشن الحرب على الكنائس الشرقية (الغنية جداً بالإيمان وبالتقاليد الانجيلية) التي (لـم تلتمس قط في « العبرية » طرق تبريرها) . وخلال هذه الحرب توجهت المسيحية اللاتينية (وجهة نمط منعزل ومنحرف عـن التقليـد الديني مستعملة منـذ وقت مبكر « العبريـة » سلاحاً واداة صليبية ضـد الميتافيزياء الشرقية) . فتم ـ باسم هـذه الخرافة التي تعطي اللغـة العبريـة مكانة خاصة ـ فصل العرب عـن المجموع الثقـافي المصري / الكنعاني / البابلي الذي هو إرثهم . ثم جاء التعليم الجامعي الغربي منذ القرن الخامس عشر ليجهز عليهم ، فينهاروا في الرمل و (ينسحبوا شيئاً فشيئاً الى حيث يغدون من قبل الغرب ، في القرن العشرين ، مختصين بالجمل والقبيلة والثأر والبداوة) !!

إنهـا الحرب الصليبية المستمرة والمستندة على إرث (يهودي / مسيحي مزعوم) ــ حسب تعبيره ــ هذا هو بالضبط ما يكشفه ومـا يندد به بحماس يصل الى جد الفضح الكامل .

ولكن ما هي هذه « العبرية » فعلاً ؟

يقول روسي : (إن إيضاحاً حول قضية العبرية يبدو ضرورياً ، لان وهماً معقداً ومستمراً لشعوذة اشتقاقية لغوية قد استطاع ان يجـر كثيراً من الناس ليروا في العبرانيين وفي « ثقافتهم ! » الاجداد السـاميين لتاريخ الشرق ، ولتاريخنا نحن ايضا . . . انّ علينا ان نعرف ان التاريخ المصنوع للعبرانيين خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق . فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار ، ولا القوانين ولا الدساتير تكشف اثراً قليلا للعبرانيين . فعلى آلاف النصوص المسمارية او المصرية التي تؤلف المكتبة المصرية او مكتبة رأس شمرا او نينوى ، وحتى الروايات الارامية . . . في ذلك كله لا تذكر كلمة « عبرية » . واشهر ملوك التوراة وهما داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية ، وليس هناك ابـداً ذكر للملحمة وللوقائع الحربية المعزوة لعبور العبرانيين . وليس هناك اي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام ١٨٨٠ ــ ١٩٢٥ . فالعدم كامل مثلما هو قطعي وجازم) وبعد مناقشة قصيرة ومحكمة لكتاب فلافيوس يوسف المنشور عـام ١٩٧٣ برعاية سلطات اسرائيل ، يخلص روسي الى نتيجة هامة هي أن العبرية لم تكن غير (كتابة مقدسة مخترعة من أجل جماعة صغيرة كهنوتية) ولم تصبح بالتالي « لغة » بالمعنى الشعبي والتاريخي للكلمة في اي يوم من الايام ! (اما اللغة العبرية الحديثة فاختراع املاه اليعازر بن يهوه الذي نشر بين عامي ١٩١٠ و١٩٢٢ معجماً طلبته الحركة الصهيونية العالمية ، وخصصته لإيجاد نوع مـن « الاسبيرانتو » ليهود العالم بالهجـرة الى فلسطين . إنه اذاً اداة سياسية) .

بعد هذا اين هي المعجزة العبرانية المزعومة ؟

الواقع انه : لا معجزة إطلاقاً !

لقد هدم روسي في هذا الفصل نظرية المركزية الاوروبية هدماً شاملاً ، وبقي عليه أن يقدم لقارئه نتائج استقراءاته وخلاصة استنتاجاته مفصلة تفصيلاً كافياً ومقنعاً بالقدر الممكن الذي يسمح به ثقل خمسة قرون من الدجل العلمي الغربي المغرض .

- ٧ -

إن الفصول التالية هي في الواقع محاولة لإعادة النظر في أهم المغالطات التاريخية والفكرية التي صنعها الغرب البرجوازي منذ عصر النهضة .

والفصل الثاني « بحار خمسة ، أنهار خمسة ، امبراطوريات خمس » وهو توكيد لوحدة الصيرورة الحضارية في إطارها الشرقي العربي في خلال استجلاء مقتضب لسياقها عبر الزمان والمكان .

إن مجموع تاريخ المثلث الحضاري العظيم صنعته خمس امبراطوريات ــ اربع منها شرقية بلا جدال ــ عاشت على (إيقاع وحيد النغمة) طيلة اكثر من خمسة واربعين قرناً بلا انقطاع . هذه الامبراطوريات هي :

ــ المصرية .

ــ البابلية . وتندرج تحت مدلولها كل الدول القوية المتوالية التي جعلت بابل عاصمتها ، من دولة حمورابي الى دولة الاسكندر المكدوني .

ــ الرومانية .

— البيزنطية .

— وأخيراً الامبراطورية الاسلامية .

ومنذ وقت مبكر في التاريخ مدت الامبراطوريات الشرقية نفوذها الى أرض اليونان وايطاليا قبل ان تصل الى مضيق جبل طارق .

ويتميز مجموع تاريخ المثلث بالحركة الزاخرة لشعوب مصر وبابل وسورية والاناضول . وكلها شعوب تنتمي الى الاسرة العربية نفسها . وكانت فلسطين وبحر إيجة مفتاحي هذا المجموع كله !

وكانت حركة شعوب المثلث تندفع عبر بحار خمسة ، وتتسرب خلال انهار خمسة ، فتجعل لذلك المجموع وحدة محققة على مستوى الجغرافيا كما على مستويات الافكار والاقتصاد والبنيان المجتمعي .. جميعاً . إن البحار الامهات هي : المتوسط ، والاسود ، والاحمر ، والخليج العربي ، والمحيط الهندي . أما الانهار فهي : الدجلة ، والفرات ، والنيل ، والرون ، والدانوب . وهي جميعاً طرق انتشار الناس والافكار والعقائد كما هي طرق انتقال الارزاق والمعادن الثمينة ، والصراعات العسكرية وغير العسكرية . ولقد استمات الفكر الغربي الحديث من اجل عزل عرب الجزيرة عن حركة اشقائهم في المناطق الاخرى ! ولكن كيف كان يمكن ان يبقى الناس (في الحجاز وحضرموت وصنعاء ومكة والمدينة .. اناساً بسطاء تعساء مشاهدين منفعلين) بينما كانت تتم كل هذه الحركة العجيبة من الشمال الى الجنوب ومن الغرب الى الشرق خلال منطقتهم ذاتها ؟

إنه لأمر غير معقول منطقياً ، كما تدحضه ــ إضافة الى ذلك ــ حركة انتقال اولئك العرب بالذين كانوا يبادرون دائماً الى ملء الفراغ السكاني، إثر كل حادث يولده ، في مختلف اقطار الرافدين والاناضول وسورية

ومصر ... لقد كان العرب يملؤون المثلث . اما العواصم التي كتب لها أن تتلألأ في تاريخه فكلها شرقية ما عدا روما . وآخر هذه العواصم ، بغـداد ، امتازت بسيطرة شبه مطلقة لا في السياسـة فحسب بل في الاقتصاد والثقافة أيضـاً .

وثمة مدينتان لم تكن لهما شهرة العواصم ، ولكنهما ظلتـا دائمـاً تحددان (حركة المجموع وخطـوط القوة) . انهما غـزة على الشاطىء الفلسـطيني ، وكركميش / جرابلس اليوم / عنـد مدخـل الفـرات الى سـورية .

والضغط باتجاه المتوسط كان (القانون المستمر لتطـور الشـرق الادنى) . وكان ذلك بفعل قوة الجذب الحضاري للمراكز العربية في مصر وفلسطين والرافدين وسورية .. امـا غزة وكركميش فهمـا المعبران الاساسيان لجميع التحركات الكبرى (وكما اخـذت الفارسية طريـق غزة وكركميش سنرى الاسكندر يقلدهـا هو وورثته ، « وسيسلك » الاباطرة البيزنطيون والخلفاء العرب المسلمون الطريق نفسها) فيما بعد .

ثم إن (اللقى المكتشفة في كركميش ، نقطة تقاطع التأثيرات المصرية ـ المتوسطة والتيارات الهندية البابلية تتشابه تشابها دقيقاً مع اللقى التي عثر عليها في غزة وتيماء الحجاز ومارب والبحرين . فالسبب إذن مفهوم في استحالة التمييز بين عدة ثقافات ، او بالاحرى التفتيش عن توزيع جنرافي لشعوب اسمها نفسه « هو نقعط » موضوع الضمان) !

لقد تعرب المثلث كله بسوية او بأخرى . والادلة قائمة على ذلك في تشابه مختلف اشكال البناء والفنون فيه ، وفي مختلف القوانـين التي سادته والتي ترجع الى أصول مصرية ورافدية ، ثم اخيراً في انتشار اللغة الآرامية وسيادتها كلغة عالمية عبر مختلف أصقاعه .

ولا يستطيع احد ان يجازف اليوم بان يجزم بحجم وسعة التأثير المصري في العالم القديم . فالسياسة قد توجهت باتجاه آسيا منذ منتصف الالف الثالث قبل الميلاد . (ونحن نعرف ان الغزوات في البحر الهندي قد كشفتها لنا تصاوير جدارية في معبد الملكة حتشبسوت من الاسرة الثامنة عشرة ، وان الحضارة الكريتية والقبرصية كانت من وحي مصري ـ كنعاني) ومع الفرعون بساميتيك ، الذي فتح موانئه للبحارة الهيلينيين ، تولد اليونان التاريخية (كما تظهر لنا في ضوء ادبها) . ومن مدارس مصر يتخرج صولون نفسه ، وهو واضع دستور أثينا واول القانونيين الاوربيين العظام ، كما سيتخرج كبار المفكرين والفلاسفة والعلماء الاغريق .

وتعكس النقوش المصرية الحجم الهائل للسيطرة المصرية ، وخصوصاً نقوش نصب الكرنك ، كما إن اسطورة ممنون (الذي جعلته الرواية يولد حيناً في سورية وحيناً في الاناضول او مصر العليا) قد عمت اقطار العالم الاربعة (إنه بطل عربي متميز) . وذلك بحد ذاته (يعطي مقياساً للالتحام الثقافي للعصر ، وللتلألؤ الذي لا يناقش لمصر الفرعونية في آن واحد) .

اما بالنسبة لبلاد الرافدين فقد كان (تاريخا مصر وما بين النهرين متطابقين) . وكانت طيبة وبابل (قطبي عالم ملتحم) . وما يجري في كامل المثلث من وقائع ، تصنعه في الحقيقة هاتان العاصمتان ، وما يجري مما يسمى فتوحات ليس في حقيقته سوى محاولات سيطرة تقوم بها مقاطعة مثلثية تجاه مقاطعات اخرى تنتمي الى نفس الثقافة المعبر عنها بلغة أساسية هي الآرامية (إن قورش مؤسس الاسرة الإخمينية والامبراطورية الفارسية لم يكن يملك الرغبة في عدم تدمير الامبراطورية البابلية فحسب بل كان يرغب على العكس من ذلك ، في استيعاب جميع حقوقها الاقتصادية والسياسية) ومكانتها الاعتقادية ايضاً .

« ولأن الاسرة الاخمينية كانت اغنى من جاراتها الغربيات بالرجال والخيل فانها استطاعت ان تصل الى تحقيق ما لم يتوصل الى تحقيقه الفراعنة او الآشوريون والبابليون : الا وهو توحيد القوى المصرية والاناضولية والفارسية في امبراطورية واحدة) .

ولكن الصحيح هو انه لم تكن هناك هيمنة بل (كانت هناك سيادة اسمية وادارية لم تغير شيئاً من حياة السكان وعاداتهم) وذلك يبرهن (كم كان التنظيم الديني والقانوني والاجتماعي متجانساً في كل مكان بحيث ان الشعوب لم تكن تحس ابداً ببدء اسرة جديدة كحكم غير محتمل في تدخله بشؤونهم .. لقد كانوا يعبرون عما في نفوسهم باللغة نفسها ويعبدون الآلهة ذاتها ... ان الامر الاساسي هو عدم التعدي على الارث الثقافي) وهو ارث عربي بالمعنى التطوري العام لكلمة « عربي » .

ومن العسير متابعة الاستشهادات المقتضبة الكثيرة التي يوردها روسي لتوكيد عروبة الثقافة في كل المثلث ولكنه يؤكد على امرين اساسيين اثنين ، الاول : هو الاصل الآسيوي العربي للثقافة اليونانية وللوجود اليوناني برمته . والثاني هو انه لم يعثر احد (حتى اليوم على أثر ولا على اقل اشارة تجبرنا على التحدث عن عاصمة عبرية او عن ملوك عبرانيين . ولم يسجل في اي مكان اسم داود او سليمان ، ولم تسجل في اي مكان الفتوحات الكبرى التي يمجدها العهد القديم) . وبالتالي ، فالمعجزة العبرانية برمتها خيال في خيال . وليس سوى العقل الغربي المزور من يجرد الشرق من عروبته ومن عبقريته المبدعة .

– ٨ –

وفي فصل « السيارات السبع » يقدم الكاتب « غزوا عابرا » – كما يقول – في الاسطورة والتقاليد الدينية الاسطورية اليونانية / الفلسطينية ، حيث تبرز حقيقة اكيدة (هي ان الديانة الاغريقية – الرومانية مشبعة

حتى اعماق قلبها بالشرق النيلي ـ الرافدي ، وان اليهودية والمسيحية والاسلام تجمع وتلخص ، كل حسبما يرغب ويريد ، التدين الجمعي للشعوب التي تستعمل اللغة نفسها والعادات نفسها والطقوس نفسها) .

ولكن الشرق يمجد الالوهية (والالوهية واحدة كما ان السماء واحدة) وبالتالي فان في عمق الاعتقاد الشعبي الشرقي ، الذي يوحي مظهره بتعدد الآلهة ، يكمن توحيد خفي الى درجة تكثر او تقل . ولكل شعب طرائقه العديدة والمتعرجة قليلا او كثيرا للتوجه الى تلك الالوهية الواحدة. واذا كانت الديانة الاغريقية ـ الرومانية لا تملك ذاك العمق التوحيدي فان الفلسفة الاغريقية قد كرست نفسها ـ على يد كبار ممثليها ـ لمحاولة ادراك ذاك العمق . وهذا ما سيوضحه روسي في الفصل الخاص المكرس لاستجلاء جوهر الفلسفة الاغريقية .

والدين في راي روسي (ليس شيئا آخر سوى توكيد وجود الروح وانسها بالإله خالقها . والتمثال ليس الالوهية حتى في مصر او في دلفي او في الأولمب . انه ليس معبودا كما هو ، بل هو عابد . انه يمثل رجلا او حيوانا في حالة يتوجه فيها لعبادة الله .. ان التمثال .. يرمز الى المخلوق في حالة الصلاة ، اي انه يجسد حركة التعلق الروحي بالله) .

ويرى روسي انه ليس هناك دين توحيدي اكثر من الآخر او اقل ؛ بل هناك مفاهيم جمالية مختلفة للعرض ، وللصياغة الالهية . و (في قلب الدين لا توجد صورة بل اعتقاد ويقين . وعندما يطابق الدين الصورة يموت في تراكب الوهم ، لان خصوصية الوهم تكمن في كونه عقيما . ان الحيوية المدهشة والمستمرة لاديان الشرق القديمة تظهر انها كانت شيئا آخر غير مجموعة صور . والاسلام نفسه لم يغير شيئا بل اكمل ! لقد استولى على قلب التراث العربي ليحاول التعبير عنه كاملا) .

وما هذا التراث ؟ انه حصيلة تطور طرائق التعبير المختلفة في الشرق عن وحدة الالوهية .

وعلى هذا الاساس ، ومن هذه المنطلقات يبدأ روسي « غزوه العابر» في التقاليد الدينية الاسطورية الشرقية .

ان كل ديانات الشرق تتوجه الى السماء اساسا . وروسي يبرز اهتمام الشرقيين جميعا بالنجوم وخصوصا بالشمس . ولكنهم كانوا (مقتنعين أن النجوم في السماء تبقى ثابتة في مكان واحد بينما توجد الالوهية في كل مكان) .

والبانتيون المصري ـ البابلي في اصله ـ ثم النسخ الفلسطينية او الاناضولية التي نعرفها تظهر جميعا تلك الحقيقة .

ولم يغب عن الاقدمين ان (الوجود لا يستطيع ان يستمر في الحياة الا بتأثير قوة التناقض بين القضية وضدها) ومن هنا كانت ثنوية الصراع بين الخير والشر في صراع حورس مع سيث عند المصريين ، وثنوية صراع قوى السماء والفوضى مع قوى التنظيم والبقاء عند البابليين ، وثنوية صراع الظلمة والنور عند الفرس الاقدمين . ومن هنا ايضا يوصف « موت » بأنه حبيب إيل في النصوص الاوغاريتية ، كما عبدت الافعى المقدسة (ملكة « الغرب الاعلى » و « صديقة الصمت ») رمز الموت عند المصريين .

والمعالجة الفنية المركزة لما لا يحصى من الاساطير في المثلث تظهر الاصل الشرقي العربي للفكر عموما كما توضح وحدانية الاعتقاد ، ووحدته منذ القدم ، في الارض العربية التي تأخذ بلاد الاغريق والرومان منها دياناتها وفلسفتها بل .. واصول انسابها ايضا !

ومن العسير جدا اختصار هذه المعالجة الفذة ، ولكن روسي يوصلنا باحكام شديد الى مايبتغيه حقيقة من هذا الفصل ، مستعينا بتفصيلات الاساطير وبأسماء الآلهة وعلاقاتها ودلالاتها ، عائدا بها دائما الى اصلها الشرقي العربي .

- ٩ -

لقد قلنا قبل قليل ان روسي قد خصص فصلا تابع فيه جوهر الفلسفة الاغريقية وبين أنه بحث عن العمق التوحيدي وراء مظاهر تعددية التعبير الديني الشعبي . ولقد عنون هذا الفصل عن عمد باسم « الدروس الإلهية » .

ومنذ البدء يقرر الكاتب ان (الدين يساوي الفلسفة ، والتعبيران يتوافقان . والفلسفة الاغريقية قسم تام من الفكر الديني الذي هو جزء تام من الفكر الشرقي) .

وروسي ــ كأستاذ فلسفة ــ لا يلقي الكلام على عواهنه بل هو يناقش جوهر تفكير كبار الفلاسفةالاغريق : فيثاغورس من ساموس، وبارمينيدس من إيليا ، وهيراقليطس من افسوس ، ثم أخيرا افلاطون وارسطو . ويلاحظ الكاتب قبل ذلك ان الفلسفة انما نشأت في (المدينة الآسيوية « ميليه » حيث تلتقي التيارات الفلسطينية والاناضولية والبابلية الفارسية) . ولهذا دلالته العميقة !

ثم إنه (ليس هناك فيلسوف اغريقي لم يكن يحدث عن الشرق ويقول انه تلميذه . ليس هناك واحد منهم لم يولد من الشرق او يسافر اليه طلبا لاكتشاف الماضي) فلماذا يكون الغرب في اعتقاده بالمعجزة الاغريقية ملكيا أكثر من الملك ؟! (فليس الفكر الاغريقي شيئاً آخر سوى درس

مستمد من الشرق ، أو عالم صغير وصدى لآسيا . فالتجربة فيه محكومة بفعل ان آسيا لم تستعر شيئا من الهيلينية ، وانها على العكس من ذلك قد اعطتها كل شيء) .

ومن جهة اخرى فالفلسفة عند الاغريق بعيدة تماما ، بل متناقضة مع المفهوم الغربي المعاصر . (ان هناك إلهاً ثم لا يوجد شيء ، كذلك يقدر الاغريقي . فليس هناك فضاء الا وهو كوني ، ولا زمن الا ما هو أبدي . . ومن واجب الفلسفة الا تراعي اهواء نفوس الافراد بل تبرز روعة ما هو نوي ورائع في الانسانية . ومن هنا جاء اسلوبها ورؤيتها العليا السامية . ومن هنا أيضا جاء جهلها غير المحدود بعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد ، وهذا يعني كم كانت بعيدة عن اهتماماتنا المعاصرة ذلك لأنها كانت طريقا للسلام ولم تكن تمارين مذهبية . . . ان الفيلسوف الاغريقي لم يكن أستاذا يعلم من اعلى المنبر . وفلسفته عقل او فكر ديني لا يعبر عنه او يتداول في الشارع فحسب بل هو ينتزع أفكاره أيضا من الشارع الذي يختلط به كل يوم) .

ويرى روسي أن من المنطقي (التفكير أن فلسفة ذات تعبير آرامي قد وجدت لدى الهيلينيين قبل أن تستعير طريقها الاغريقي) ، أو على الاصح يجب أن يقال عوضا عن « فلسفة اغريقية » « فلسفة ذات تعبير اغريقي »!! ذلك أنه للحديث عن « فلسفة اغريقية » (يكون علينا انتظار تقدم اللغة الاغريقية ، وذلك أمر ينقل المشكلة بعيدا دون أن يحلها) .

ولكن ماذا يقول الفلاسفة الاغريق الكبار اصلا ؟!

ان فيثاغورس (يكتفي بالتأكيد على ان الجسم وهو يتلاشى يحرر مبدا خلوده الذي يعود به الى الكون الواسع الذي لم ينقطع عن ان يكون على صلة قليلة او كثيرة به . . ويجب أن تكون الروح قد شربت ، على الاجمال ، قبل موت الجسم ، سر الموت الذي بدونه لا وجود لحياة

ازلية . ذلك ان الحياة الازلية رقم . وأي رقم ؟ انه رقم السماء بالطبع . الرقم الذي يعطي القانون الى حركات الشمس والكواكب .. ان هذا الرقم هو النتيجة الإلهية المعادلة للتوازن بين جميع قوى الكون الفاعلة . ان فلسفة فيثاغورس لكونها دينا كوكبيا وعلما رياضيا وفلسفة ، تعرض اذا على شكل صورة هندسية تحركها قوانين ازلية . أما الروح فعليها أن تغدو هندسية اذا ارادت أن تتحول دفعة واحدة الى صورة سماوية .. وما ان تتحرر من الجسم حتى تصبح غير موزونة ، مسؤولة عن اعمالها البيض والسود . ولكنها تغدو مقيسة بمثلث او فرجار قبل ان تملك الحق في سكون الفضاء المطلق . ان الخطيئة تعرف بانها فقدان توازن او انحراف في الخطوط .

ان مفهوما مجردا عن الماديات كهذا المفهوم عن الوجود ... يلتقي « في صفائه هذا » مع الرؤيـة المعمارية والاهراميـة التي كان المصريون يستمدون منها نظامهم الحياتي ، فلقد كانوا يدفعون بعيدا جدا ؛ وهم سادة الاعداد والهندسة السماوية والارضية ، فن الحساب الذي كانوا قد جعلوا منه علم التنبؤ .

اننا نجد في المثل العربي « يجب ان تشرب روح الموت قبل الموت » صيغة لم ينكرها فيثاغورس الساموسي الذي كان الجمهور ينتظره على انه « الكلمة المنقذة . »

ولن تتخلص الفلسفة الافريقية أبدا من الهندسة ومن تمجيد الرقم !

اما هيراقليطس فيرى (أن مفتاح وحدة الكون يوجد في اللوغوس : « العقل » ، ان هذا العقل يسود ويطبع كل شيء وكل مخلوق بقانونه الحاد . وهو يستثني كل حرية وكل امكانية للمصادفة : « هناك بالتأكيد قوانين للقدر ») ويرى هذا الفيلسوف أيضا (ان الانسان محروم من عقله) ولا يبقى له (الا أن يستسلم للإله) .

وحسبما يقول روسي ينبغي ان نقول لكي نكون اكثر دقة : (إن الفكر في نظر هيراقليط غريب تماماً عن الوجود) والإله — وفق هيراقليط — (لكونه مولجاً بتنظيم وترتيب متناقضات المكان والزمان « فانه » يستوعبها في طبيعته التي هي في الوقت نفسه متحركة وتعارضية) وإله هيراقليطس « وحدة التناقضات » وما يتناقض وهو يتكون ازلياً يثبت . (« فلا الظلمة ولا النور ، لا الشر ولا الخير يختلفان . إنّ طبيعتهما واحدة متجانسة » « فالحياة من الموت والموت من الحياة ») .

(إن هيراقليط حسبما يروي صولون ، قد تأثر بأسطورة إيزيس واوزوريس . فالقمر والشمس معروضان لديه رمزياً بقاربين كما هو الامر عليه في مصر . اما ديانة النار الزرادشتية ، وهي نظرية المتعارضات العزيزة على الفكر المصري — الرافدي ، والتي محاها الاسلام بايمانه بالله الكبير ففتش عن الانسجام الكامل والمخبا . . . تلك الديانة يتماسك فيها كل شيء ويكتمل لدى هيراقليط الافسوسي) .

(والشمس ابدياً ، تعود الى عقل هيراقليط منبعاً وسيدة وآمرة كما في الديانة المصرية (« الشمس سيدة ، وحارسة الثورات الدورية ، تحدد وتوجه ، تظهر وتكشف التحولات ») . إن (آسيا حاضرة هنا بشكل جيد وليست اليونان الا في الكتابة) .

فاذا انتقلنا الى بارمينيدس وجدنا تعاليمه تعتمد على هذه البديهية « الكائن موجود اما غير الكائن فغير موجود » (فالكائن « يكون » منذ اللحظة التي يوجد فيها . ولانه لم يكن مخلوقا من قبل فان هذا يعني ان المخلوق لا يدوم لان المخلوقات لا تعقل . ولأن الله ثابت لا يتغير ، كامل غير ناقص ، ومنيع يتعذر انتهاكه ، فانه مكون في رأي بارمينيدس من فلك رمزي ثابت ثباتا مطلقا . وبما أن الثبات واضح ، فالحركة ليست الا تسلية ولهوا) ومبدأ المبادىء عنده هو كما عند هيراقليطس وفيثاغورس

نار زرادشت ! اما بالنسبة للكرة الارضية فانها تتشابه كالتوام مع صورة سماوية لفيثاغورس مستوحاة من البيضة الاورفية والخط المنحني التام والخلاق .

(وتلتقي الاطراف أيضا عند بارمينيدس وتتنافى التناقضات في مركز حلقات ا' ار هذه . وهي رموز ديناميكية للكون . وتمكث « الإلهة الملكة » إيروس أو افروديت عنصرا مذكرا ومؤنثا في آن واحد ، نورا وظلمات على مثال عشتار) .

ومن يمعن النظر في أفكار الفلاسفة الثلاثة المذكورين سيرى بوضوح أنهم جميعا (يتعلقون بالشمس وبالخلود وبالتجريد الاعظم وبالحياة السرمدية وبالمفهوم غير المجازي للكون الذي جوهره مصعد حرفيا في امر لا يعبر عنه) .

اما الشرح الاكثر جدية لافكارهم فيجب ان يبحث عنه في « كتاب الموتى» المصري وفي نصوص فلسطين المقدسة ونصوص ما بين النهرين . . .

هذا ما يقوله روسي ببساطة !!

وماذا عن افلاطون ؟ (ماذا تخبىء الواجهة المسرحية لهذا الصوفي المذهل ؟) .

(ان الافلاطونية « مثل » شراع حملته التيارات الدافعة القوية ، لقد تبعتها ولكنها لم تفحصها . انها ـ أي الافلاطونية ـ لم تخلق شيئا ما ، لأن عمل الخلق قد تم في الاعماق من قبل الآلاف السابقين . ففي أعماق السكوت والتأمل في الديانات الكبرى ألف كل عمل سياسي وجمالي وصناعي وروحي ، تكنيكي أو خلقي . ولكن لم تكن البتة على سطح التأملات الفلسفية أشياء أفلاطونية) .

ان فكر معلم الاكاديمية ـ الذي هـو تلميذ فيثاغورس واورفيـه وهيراقليطس والذي عاش طويلا يتتلمذ في مصر وبقية البلاد العربيـة ـ هو صيغة ملحمية شعبية واسطورية ، ومحادثاته الفلسفية المسرحيـة (تجمع « زعماء قضايا » من نوعية مثالية ، تبقى طبيعتهم مجردة ورمزية) انهم اشخاص يحملون ارقاما على طريقة الآلهة ويشاركون في لعبة اشباح هادئة . وان سعيه الى حوار معمى لا يفهمه سوى الذين فهموا «الترجمة» يبقى سعيا دينيا سريا .

(ان افلاطون يقدم عروضا متناقضة ، ويلهو ليصدم الافكار بشكل مبلبل الى حد يتساءل الانسان معه دائما الى اين يريد ان يصل به ؟ . . « انه » يقطع بالاوهام مسافات الى احتفالات سرية مصرية او بابلية . ويبدو لنا الفكر الآسيوي فيه متعودا عليه ، ولعل أول ما يبدو فيه هو التاكيد على ان الحقيقة المحسوسة ليست الا صدى فكرة ما والفكرة خالدة مثل الالوهية التي تنبثق عنها ومثل الروح المتصلة صميميا بالالوهية . ويتبع ذلك ان النفس المخلوقة على صورة الإله . . ازلية . هذه الروح المسجونة مؤقتا في جسم زائل ستتنشق الصعداء بعـد الموت الذي سيحررها) . . .

والاستنتاج الثاني يعني ان الروح تملك بطبيعتها العلم الحقيقي الذي هو معرفة الافكار . ويكفي اذن أن تضع جهدا وتأملا وتذكرا لكي تعيد الى وجدانها المعرفة التي هي معرفتها الخاصة بكل خلودها ، تلك المعرفة التي ان ضلت عنها فقدت نفسها . فالروح ليست بحاجة الى التعلم ، انها تعرف ، لأن العلم الحقيقي كائن في الاخلاق وليس في الدراسة . . . فالروح اذا يعوقها الجسم عن الفهم وهي كلما تخلصت من الجسم صعدت الى الاعلى في سماء المعرفة حيث ستنتهي بالفناء في الله .

فالله في الحقيقة ، وهذا هو التأكيد الثالث والاخير ، ملك الكون ومؤلف الانسجام والتناغم ، ونهاية سامية وعقل وحيد متعذر بلوغـه بالفهم ومستحيل على فرد زائل ان يتأمله) .

وترد في الحوار الافلاطوني مرات عديدة فكرة الكرة السماوية .. الكرة التي تحوي الثالوث المقدس في الشرق منذ بدء الحضارة في مصر وسورية والرافدين ، (« حول ملك الكون تدور جميع الكائنات . انه هو ، نفسه ، نهاية كل شيء وسبب كل جمال ، وحول « الثاني » توجد الاشياء الثنوية وحول الثالث توجد الاشياء الثلاثية ») وها نحن أولاء في قلب التقليد المصري ــ البابلي الذي تتابع أثره على مدى تاريخ الديانات الشرقية : ثلاثية مآس ، ثالوث ، الثالوث المقدس ، المثلث . وان افلاطون ليعود اليه في غالب الاحيان ، وهو يقسم الروح ثلاث طبقات : الرغبة الجسدية العميقة ، الشجاعة الاخلاقية ، والفكر المثالي . وانه ايضا ليرى الحقيقة الشاملة في ثلاث : « ان الله اول الخيرات ، والثاني الفكر المتولد عنه ، والثالث هو روح العالم ، الصلة بين الآب والابن ») ويجب هنا ان نتذكر ان كل معبد مصري مهدى الى ثالوث من الآلهة : الاول هو المبدأ المذكر والثاني هو المبدأ المؤنث والثالث هو نتاج الاثنين ، ولكن هؤلاء الآلهة الثلاثة ليسوا الا واحدا . (الآب ينسل ، في الواقع ، نفسه في رحم الأم . ويصبح في آن واحد ابا وابنا ، وهكذا يعبر عن اللاخلق والأزلية ، عن الكائن الأعلى) .

اننا هنا نقترب من جوهر المسيحية . ولكن يجب الا نرى انها نتاج الافلاطونية وانما هي نتاج تيار في الفكر الديني العربي القديم كانت الافلاطونية نفسها نتاجه ايضاً .

أما ارسطو (المعاد النظر فيه والمصحح من قبل الجامعة) والتعليم الجامعي الغربي ، فقد جرد من ثقافته الآسيوية (وعزل عن مجتمعه الخاص ثم وضعت صورته كمادة زخرفية في مدخل معبد الافكار التراثية .. انه لارسطو مزيف .. وان واحدا من المسؤولين النابغين عن هذا التزوير لم يكن سوى توماس الاكويني) .

(ان الفكرة والغريزة لدى ارسطو مصونان ومشاركان بقوة في توازن طبيعي متماسك . فلا تعرف سعادة بالنسبة اليه في مجتمع يرفض

القانون الطبيعي ، والذي لا يصبح حساسا لديه ومتوافقا وجود السماء والارض والبحر والناس والحيوانات والاشجار . وها نحن اولاء اذا عائدون مع ارسطو الى جنة الديانات النباتية والحيوانية ، للديانات المصرية والفلسطينية والافريقية حيث كل حيوان إله لانه ينبثق عن الله وحيث كل حجرة جديرة بعبادة لانها دليل الخالق وشاهد عليه . إنّ قدر الانسان هو في هذا التزاوج مع الطبيعة ، وهو الشكل الوحيد لاعادة تنظيم الخلق) .

(ان العلم يدرس الكائنات ، اما الفلسفة فتدعي دراسة الجوهر والكائنات مصنوعة من مادة تشكلت في صورة . ولكن المادة نفسها تنفلت من كل تعريف وادراك جسمي ، ولا تدرك الا بفضل الصورة التي هي انبثاق والتي تشكل ماهيتها وجوهرها الاولي والازلي .

إن ارسطو قريب جدا هنا من افلاطون ومن نظريته في المثل فالروح صورة الجسم ، وهي دائمة خالدة والهية في اسمى اقسامها الاثيرية الذي هو العقل .

ان فرحه لفي الاشتراك مع الكون كله في تأمل الله المحرك الازلي الواحد والثابت في الكون الذي كماله ابتهاج حقيقي) .

ويبدو ارسطو في فلسفته وكانما يقدم نظرية معكوسة في نشأة الكون ، اذ هو ينطلق من المخلوقات الى الخالق بينما يذهب الاجداد الكبار ، مما بين النهرين ، من الاله لاكتشاف المخلوقات بعد ذلك .

(ولعل هذه الخطوات تبدو متعاكسة بصورة ظاهرية ، فالاولى تظهر بترتيب علمي وعقلي ، بينما الثانية ــ وهي خطوة مابين النهرين في الالف الثاني قبل الميلاد ــ تبدو متحركة عقليا وتمتلك حركة الايمان أي الحدس من أجل الاندفاع . ومع ذلك فان ارسطو لا يبحث أبدا عن

الاله اذا لم يكن قد وجده . وفلسفته التي هي انشودة الفرح ذي المغزى الكبير مشبهة لهذه القياسات المنطقية الكلاسيكية التي تحتوي الخاتمة حتى في صياغة النظرية) .

ان ارسطو ، مثله مثل غيره من فلاسفة اليونان ، واحد من تلاميذ الشرق . والى الشرق كان يعود دائما خصوصا الى مدينة اسوس في آسيا الصغرى . لقد رجع الى المنابع (وتأثر بالمناخ الديني العام لشعوب الشرق المتوسط . ولم يسلم من تلك المؤثرات اي فيلسوف إغريقي . وكل منهم قد تصرف حسب مزاجه الخاص ولكن بدون أن يغير شيئا في الملامح المصرية ـ الفلسطينية) .

وبعد أن ينتهي روسي من الخمسة الكبار معيدا فلسفاتهم الى اصولها الشرقية يتناول بسرعة فلسفات ديموقريطس وابيقور وتلاميذهما ، ويعيدها بدورها الى مدرسة ليبيا (التي اعادت اختراع الفيزياء الذرية) متطابقة بذلك مع مدرسة الفلسطيني زينون من كيتيوم .

و (ان الانسان العائد الى عالم حقيقي لطبيعة تلتصق بها كل خلية من خلايا جسمه .. هذا الانسان الذي ينقلب نبتة أو ماء او ترابا لا يتميز ابدا في شيء عن المخلوقات التي تحيط به فليس له عليها مزية او سلطة خاصة) ان ذرات ابيقور المدومة (لا تتوقف البتة عن تركيب نفسها وتحليلها ، حاملة الطبيعة في دائرة حياة مستمرة وموت ازلي يبدأ من جديد) وان كل شيء لدى ابيقور لمعجزة . وفي كل لحظة (يتشكل ويفنى مخلوق في دم العالم) وهكذا فان نظرية ابيقور اكثر من فلسفة اصيلة (فهي بالتأكيد شرح شعري للنظريات الكبرى الشرقية التي لم يضف اليها افلاطون او ارسطو شيئا . لقد كانوا يتكلمون خلال عصور طويلة ، وتحت غطاء من تعدد الآلهة ، في مصر والاناضول وآشور عن فيض ، وعن اصول عالمية قابلة للتبادل تألفت من تحليل جميع الانظمة والانواع) .

ولان الفلسفة الاغريقية جزء من تراث الشرق فالى الشرق .. الى سورية ومصر وفلسطين ستعود لتكتمل خلال القرون القليلة التالية . ذلك هو قدرها وتلك هي بيئتها الاصلية .

- ١٠ -

والشرق يرفض في الحقيقة السديم العماء ، ويفتش عن النظام في الطبيعة كما يفتش عنه في الفكر . فالرجل المشوش المرتبك قلب بدون نور . فالعلم اذا ، وقبل كل شيء معرفة النظام الكلي . والبحث العلمي يعتمد على اكتشاف وتنظيم اشارات هذا العالم بغاية التزامه . اما الاخلاق فنهاية العلم ، والعقل سنده) وعلى هذا الاساس كان كل علم شرقي علما تطبيقيا . (كما انه لا توجد فلسفة مجانية ولا فن للفن ؛ كذلك لا يوجد علم نظري) .

بهذه الرؤية النيرة والمنطق المتماسك يفتتح روسي فصله الخامس « علم الفلك وفن الحياة » .

وكما أوضح تلمذة فلاسفة الاغريق على الشرق كذلك يؤكد تلمذة علمائهم عليه . انه يعرض لنا انجازات علم الفلك في مصر والرافدين موثقة منذ الالف الثالث ق.م : تقسيمات السنة والاشهر والايام .. دائرة الخسوف ووضع النجوم الثابتة ... تقسيمات الساعة ونظامي الحساب العشري والستيني .. تقسيمات الدائرة والدرجة .. وحين نقل تالس هذه المعطيات الى العلم الاغريقي كان علم الفلك المصري والكلداني مؤسسا منذ خمسة وعشرين قرنا تقريبا (ومن الجدير بالتسجيل ان اليونانيين كالرومان تماما لم يكونوا ابدا مطلعين على العلم السماوي المصري ـ البابلي ، الذي سيكون عرب الامبراطورية البيزنطية ثم العرب المسلمون الوارثين الوحيدين الخبيرين به) واذا كان لكل مدينة شرقية مركز مراقبة فلكي ، فان الاغريق لم يمتلكوا أبدا شيئا من ذلك .

ولقد اضطر يوليوس قيصر الى تكليف عربي من الاسكندرية يدعى سوسيجينيز الى اصلاح الروزنامة اليونانية بسبب فوضى التأريخ التي اخذت تهدد بقسوة ادارة الامبراطورية . وكذلك اضطر البابا غريغوار الثالث عشر الى الاستعانة برياضيين عرب ليصحح التقويم اليولياني . وعليه فيجب ان يسمى التقويمان بـ « التقويمين العربيين » . والتقويم الغريغوري تقويم نظري بحت . اما العرب فكانوا يستخدمون لقياس الوقت طرقا عملية أكثر براعة : (كان الفلسطينيون يستخدمون تقويما بحريا ، وكان اليمنيون وشعوب الخليج العربي يملكون روزنامة مجموعة نجوم الثريا) وهي تقويم غريب عن الامطار والانداء ، نشره عرب الصحراء حتى شواطىء المتوسط . وكان الآشوريون يملكون يوم راحة في الاسبوع ذي الايام السبعة ، وهو مالم تعرف روما ذاتها مثله .

وقد دهش أوربيو العصور الوسطى من امتلاك العرب آلات فلكية وآلات ملاحة كانت مجهولة عندهم . وظنوا ان العرب اخترعوها دون ان يفكروا انهم توارثوها منذ آلاف السنين .

وكان الاغريق قد عجزوا عن الحصول الا على قسم ضئيل من العلوم الرياضية والسماوية التي كانت في الشرق منذ ابتداء حضارته (لانهم لم يكونوا يملكون مدارس ولا علماء ولا قوة اقتصادية تكفي لدمج مجتمعهم في مجموعة علمية متفاوتة بالنسبة لمعارفهم . فلقد خلبتهم ضخامة العالم الشرقي ، وبقوا تجاهه كتلاميذ امام معلم ، وكانوا غير قادرين على نقل غالبية الارث الشرقي . وهو الارث الذي سيقوم به العرب) المسلمون ، فيما بعد .

اما الرياضيات التي تشتق من علم الفلك وعلم المساحة وضرورة نظام الوزن فكان اليونان مغرمين بها ، ولكن لم يكونوا خبراء فيها .

واذا كان العالم لا يملك الآن دليلا مكتوبا على معالجات هندسية أو رياضية باستثناء بضع أوراق من البردي ذات طابع مدرسي فان

(الانجازات العملاقة التي منها الاهرامات ومعابد الكرنك او نينوى تشهد على عمليات لا مثيل لها في ميدان الحساب والفضاء بابعاده الثلاثة ، يضاف الى ذلك ان ارادة وضع علاقة بين الخط المستقيم والمنحني ، بين الصورة المغلقة والسماء المفتوحة ، بين الزمن الفلكي وتخطيط المعبد ، بين الاستمرار والمؤقت ، قد ادخل في الرياضيات النيلية مفهوم العمل الدوري الذي يرى عملا عظيما مطبقا ديناميكيا بعدة ابعاد وليس ميكانيكية الجوامد فحسب) .

والمرجح ان سبب عدم وجود ماهو مكتوب عن هذه الهندسة والرياضات العظيمة ان المصريين والبابليين كانوا يعتبرون شيوع هذا اللون من المعرفة امرا خطرا ، لان المختصين منهم قدروا قوتها الحقيقية. لذا كانوا يبقونها مخبأة حفاظا على عدم ايقاع الاختلال بدورة الحياة .

ولقد اخذت اليونان عن مصر والكنعانيين وحداتها القياسية ورموز اعدادها ، وكثير منها يحتفظ باسمه العربي . و (علم اليونان الرياضي يجب الا يكون مبالغا في تقديره . فالحقيقة تجبرنا على القول ان الرياضيين الاغريق الذين وصلتنا اسماؤهم كانوا جميعا ودون استثناء من اصل عربي . صحيح ان لغتهم كانت الاغريقية ولكن الاسر التي كانوا ينتسبون اليها كانت من مصر او من آسيا الصغرى ... ان الاسكندرية هي التي كانت المركز الرياضي للعالم القديم ، وقد ورثت تجربة طيبة وصور وساردیس وبابل) .

(لقد كان اقليدس وديوفانتي مصريين . ولم تنقل حوليات اثينا وكورنثه والبيليبونيز او بيوتيا ذكر اي رياضي) وفي الشرق كانت علوم الحيوان والنبات والمعادن منظمة ومفهرسة المالك منذ الالف الاول ق . م .

اما في علم التشريح فيستغرب روسي من اين جاء الغربيون بفكرة « ان دراسة الجسم الانساني وتشريحه كانا ممنوعين في الشرق » .

ويرد على ذلك قائلا (ليس هناك مكان وجدنا فيه اثرا لهذا التحريم المزعوم . ونحن نعرف بالمقابل العمليات الدقيقة التي كان يقوم بها الكهنة الاطباء على الجثث قبل تحنيطها . اننا نملك لوحات تشريحية وادلة على استبدال اعضاء بمعدن او بحجارة كريمة . ان فنون التوليد والبتر والثقب تقتضي بالضرورة معارف طبيعية معمقة . ولم يكن بقراط ليكتم التعليم الذي تلقاه في مصر) ثم يعدد روسي الميادين الاخرى التي برع فيها عرب فلسطين ومصر ومابين النهرين فارضين فيها (عبقرية تقنية لم تتعادل حتى اليوم : التعدين والصياغة والزجاجيات وقطع الحجر والنسيج) ويسوق على ذلك الامثلة والشواهد الموثقة وهي امثلة وشواهد لا مجال ابدا لدحضها .

فاذا ما انتهى من ذلك انتقل الى السياسة والقوانين مؤكدا ان الدولة بمفهومها الحديث قد ولدت على ضفاف النيل و (ان احد اسس القانون المدني والقانون الجنائي في مصر هو ان العدالة كانت تابعة للدولة) وكان المصريون الرافديون والسوريون اساتذة المدنية الاغريقية الرومانية ، (واساتذة مدنيتنا الحالية) في القانون . (فالعربي فقيه قانوني منذ ولادته وهو يفهم بحذر شديد نص البرهان والحذر الدستوري) .

وتيودورس الصقلي يحلل المدينة المصرية القديمة فيذكر بدقة (القوانين المدنية والجنائية .. قانون وجود محلفين منتخبين ومحامين ومحاكم استدعاء . والشهادات والادعاءات والمصادقات كانت ، قانونيا، خطية) ، حتى لقد بلغ فن الوراقة في مصر كمية تعادل ما تتطلبه ادارة دولة معاصرة ! والعجيب ان الغربيين في كتبهم المدرسية يعاندون في هذه الحقيقة ويصرون على ولادة المدينة الاغريقية من العدم دون ان يقيموا اي اعتبار لاصولها الاكيدة .

(وانه لامر اكثر ادهاشا كذلك ان معظم مؤرخينا قد تكلموا عن سيطرة اغريقية على الشرق . بينما كانت قوة المدن اليونانية لدى مقارنتها بالامبراطورية المصرية والبابلية لا تعدو كونها مشابهة لامارة اوندورا بالقياس للولايات المتحدة الامريكية) !!

وبعد استعراض لفقر شبه الجزيرة اليونانية بكل الموارد ، وللغنى الخيالي الاسطوري في الشرق يقول روسي (ان الحقيقة تكمن في أن اليونان كانت اسكافي القصيدة الخرافية الذي يذهب شاحذا لدى المالي) .

وعلى ضوء هذا الواقع لا يمكن ان يكون قابلا للتصديق أن اليونان تفتح الشرق على يد الاسكندر أوحتى هيرودتس وديموسين وتوسيديدس وآريان وبلوتارك يرون ـ هم أنفسهم ـ هذا الامر على شكل آخر . وعليه لابد من الرجوع اليهم لاستجلاء حقيقة الامر بعيدا عن الدجل التاريخي الغربي وتعاليمه المزورة .

- ١١ -

ومن هذا الاساس يبدأ روسي معالجته الجديدة لقصة الاسكندر في فصل « الملك الآرامي الكبير » . فلا يجد في فيليب المكدوني وابنه الاسكندر اكثر من عاملين تابعين للامبراطورية الفارسية التي سيطرت على الشرق منذ استقر قورش الاول في بابل سنة ٥٣٣ ق.م واكد ابنه قمبيز نصف حمايته على مصر بدءا من سنة ٥٢٥ ق.م .

ويعيد روسي ترتيب الوقائع فيجد أن عصيانا وانشقاقا قد حدثا في الاسرة الاخمينية . وأن داريوس الثالث قد استولى على العرش بغير حق ، بخاصمه في ذلك الفريق الشرعي الفارسي ـ البابلي الذي ظل امينا لذكرى اسرة الملك داريوس الاول . فصنف داريوس الثالث مغامرا .

وقبل ان يقرر روسي هذه المسالة يستعرض روسي علاقة التبعية الانتهازية التي سلكها حكام المدن اليونانية تجاه ملوك الاسرة الاخمينية خلال مائتي عام تقريبا . ثم يتوصل الى النتيجة التالية : وهي ان الفريق الشرعي استنجد بالعامل المكدوني الوفي للشرعية فقاد الاسكندر جيشه الصغير الذي دعمته قوى الفريق الشرعي الضخمة ضد داريوس الثالث. فكانت فتوحاته المزعومة « نزهة » تقريبا ، قوبل فيها جيشه بالاحتفالات في كل المدن والمناطق المؤيدة للشرعية وببعض المقاومة في المدن المؤيدة لداريوس الثالث . وحين وصل الى هذه النتيجة أعلن نفسه ملكا على الشرق ببساطة . و (لقد بذل جميع جهوده لكي ينسي الناس انه ليس من بلادهم . ولقد توصل الى أكثر مما يريد وبسهولة) لا بالعرقية بل بالثقافة والديانة . فالاغريق والافريقيون ـ الآسيويون لم يكونوا يتمايزون في الحقيقة ، ولم يكن « العداء القومي » معروفا في ذلك العصر. وليس ثمة ماهو أبلغ دلالة من أن الاسكندر كان (يمهر مراسيمه بخاتم داريوس الخاص) .

لقد يسرت الثقافة العربية الآرامية ــ التي كانت ثقافة المثلث كله ــ عملية « انتصار » الاسكندر . وهكذا حق لروسي أن يسميه عن عمد باسم « الملك الآرامي الكبير » .

- ١٢ -

ويأتي فصلا « البطالسة والسلوقيون ، وارثون متنافسون واعداء » و « روما مستعمرة مصرية » متابعة لاعادة قراءة الوقائع التاريخية الخاصة بهذه الدول في ضوء قوة الشرق العربي الاقتصادية وهيمنته الفكرية والثقافية عموما . ولسنا في حاجة لعرض المحاجات القوية التي يوردها روسي . بل يكفينا العنوان « روما مستعمرة مصرية » لنعرف توجه تلك المحاجات .

ولكننا يجب الا يفوتنا ذكرانه في زمن سيطرة روما ولدت المسيحية التي استطاعت ان تنتشر اخيرا في كل انحاء الامبراطورية كما يجب أن نذكر بالدور التخريبي الذي لعبه اليهود لا ضد المسيحية كدين بل ضد الضمير الديني العربي ذي السمة المسكونية العالمية ، وذلك بتحريضهم على خلق التعصب الديني الذي لم يعرفه الشرق اطلاقا من قبل .

- ١٣ -

اما الفصل التاسع « بيزنطه والحروب المقدسة » فهو مخصص لتاريخ الصراع التعصبي بين الكنائس المسيحية ذلك الصراع الذي عمل اليهود على تأجيجه واستعاره بكل ما توفر لهم من وسائل .

وقد نشب هذا الصراع في اطار الصراع الاشمل بين روما والفرس من اجل السيطرة على الشرق . ففي القرن الثالث كان « ماني » مطور الزرادشتية قد انجز مذهبه وتبنته الاسرة الساسانية . وفي القرن الرابع قال الاسقف الاسكندري آريوس ان المسيح ليس الها ، واكد على طبيعته الانسانية . ولكن اسكندريا آخر هو آثاناس عارضه مبشرا بالوهية المسيح (وهي وجهة نظر بعيدة عن المقولات العقلية) — والقول لروسي — وكانت آراء آريوس تصل الى نظريات ماني و (الكنيسة الساسانية) العدوة ، لذلك وجب الحكم على آريوس ، وأقر مجمع نيقيا آراء آثاناس .

وبدىء لاول مرة في التاريخ بفرض دين على الشعب في غربي الفرات خلافا للتقليد المتوسطي — العربي مما اثار الذعر لدى الناس .

ودفعت الاحداث باضطراد الى ولادة عقيدة التثليث . وكبر مقام الاسكندرية وكادت ان ينظر اليها على أنها مقر الحبر الاعظم ، والجديرة بوراثة حضارة مصر ومجمل حصيلة الحضارة العربية .

وفي الوقت ذاته تركز انقسام العالم العربي الى عالمين على جانبي الفرات ، واشتد الصراع بين روما والساسانيين . واضيفت الى هذه الحروب التمزقات الداخلية في الامبراطورية الرومانية . وأثار مجمع القسطنطينية مزيدا من الثورات وشجع على التمرد والنزعة الانفصالية في انطاكية .

وفي الوقت الذي اخذت القبائل الجرمانية تهاجم القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية بعد انشقاقها الى امبراطوريتين ، صمدت القسطنطينية بفضل تقاليد الصمود في المدن العربية العريقة .

ولكن المنازعات الدينية اشتدت في الامبراطورية البيزنطية /الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية/ واعلن نسطور السوري بطريرك القسطنطينية آراءه التي تابع فيها آراء آريوس فوقف في وجهه سيريلا بطريرك الاسكندرية الذي تبنى آراء آناباس وبمعونة روما فرض سيريلا آراءه و (في مجمعي افسوس في سنة ٤٣١ ثم في سنة ٤٤٩ حكم على اسقفي مدينتي انطاكية والقسطنطينية) وكادت الاسكندرية ان تصبح مقر البابوية . ولكن البابا ليون الكبير (ناور . . في مجمع خلقيدونية ليحكم على مذهب الطبيعة الواحدة مقتلعا بذلك من الاسكندرية رصيدا روحيا كانت قد حصلت عليه . وهكذا اغتيل ضمير الشرق العربي بصورة مؤلمة . وراى الشعب نفسه يعتدى عليه من قبل غرب لا يستطيع أن يوافق على حمايته الروحية . . لقد اعتدت روما والامبراطورية مرتين على عقل الشرق المقدس : الاولى في الحكم على الايمان السوري و[illegible] آريوس ، والثانية عندما اشتهرت بالايمان المصري المتمثل في البطريرك المقدس اثاناس والبطريرك سيريلا المقدس) وكان لابد من راب الصدع بين كنيستي انطاكية والاسكندرية لا ضد روما فقط بل وتوجها نحو الكنيسة الثالثة في فارس . (اننا لنلمح اذاً في وقت مبكر ومنذ القرن الخامس تحالفا دينيا وشعبيا بين العالمين المصري والبابلي . ان ذلك التحالف سيقدم وثاقا متينا للاسلام ، ورد فعل المجتمع الارامي على العقيدة اللاتينية) .

ويتتبع روسي الصراعات ونتائجها في ايام الامبراطور جوستنيان ويصل الى النتيجة التالية على مستوى الفكر ، حين يقول (ان احياء الآداب العربية خلال حكم جوستنيان فصل هام في تاريخ الحضارات العام . فلقد كان استعمال اللغة الاغريقية فيها موازنا لاستعمال الآرامية التي تطورت الى السريانية على مستوى الادباء ولكنها لم تكن سوى العربية في قوتها اليومية والشعبية ... ان الاسهام الذي قدمته سورية آنئذ للثقافة الشاملة لم يعترف بها في عصرنا الراي العام الذي يجهل كل شيء سوى القسطنطينية ..) بينما كان جماع الفكر والثقافة والفن من نتاج العبقرية السورية آنذاك .

ويتحدث روسي باعجاب بالغ عن كنيسة القديسة صوفيا التي هي رائعة من روائع الفن المعماري السامي والمنتمي الى التقاليد السورية . ولا غرو ، ف (الفن البيزنطي يجسد مقدما التأمل الاسلامي لانه فن عربي) أصلا .

وهكذا فحين جاء « سلام الاسلام » كان الطريق ممهدا ليسود بالسرعة الفائقة التي ساد بها . ذلك انه في ذاته كان ذروة تطور العقل الشرقي والروحانية الشرقية حيث لم تكن الجزيرة العربية بمنأى عن أبسط تفاصيل ذلك التطور في أي يوم من الايام .

- ١٣ -

بعد هذا العرض لكتاب روسي ــ ونحن نعترف بانه كتاب لا يمكن تكثيف كل افكاره واختصارها نظرا لدقته وتركيزه الشديدين وللموسوعية الهائلة التي يتمتع بها المؤلف ــ بقي ان نقول كلمة سريعة عن ترجمة السيد فريد جحا لهذا الكتاب .

لقد أشرنا في البداية الى انها ترجمة ركيكة وسيئة ، ولكنها في الواقع اكثر من ذلك . انها تنم عن ضآلة معرفة المترجم بالاسطورة والفلسفة

والتاريخ وما الى ذلك ، كما تنم عن جهل فاضح بأساليب استعمال العربية التي يعمل مفتشا لها في وزارة التربية !!

ولن ارهق القارىء بالكثير من الامثلة ــ وهي تكاد لا تحصى في الكتاب ــ بل سأكتفي بعرض نموذج أو نموذجين عن كل خطأ في الميادين سابقة الذكر .

ففي الاسطورة مثلا يسمى الاله السومري ــ الاكاديّ (آن ــ آنو) باسم اوانيس في عديد من الصفحات وفي الصفحة (٩٠) يسميه (عانو) !! وفي مكان آخر يجعل « ايكاروس » بطل اسطورة الطيران الشهير انثى يسميها ايكارا !! اما « ادابا » بطل الاسطورة الرافدية الحكيم الذي يستدعيه الاله « آنو » الى السماء لاختبار حكمة الانسان فيرد عنده في الصفحة (١٠٣) على الشكل التالي :

« وفي القوقاز ؛ تبعا لاسطورة الطوفان يرتبط برومبثيوس الجبار وهو نسخة ثانية دقيقة من بطل ما بين النهرين بالاداب ..) ! نعم لقد تحول ادابا الى « بالآداب » لان المترجم لم يسمع بهذه الاسطورة على ما يبدو .

أما في الفلسفة فسأكتفي بهذا الشاهد . يكتب المترجم في ص ١٢٢ ما يلي :

« ولا نملك هنا وهناك الا بضعة نصوص قدمها لناكل من ابنا دوقليس وفيلا لاوس وافلاطون وارسطو و (ديوجين ولآيرت ...) لقد تحول ديوجين اللايرتي الى فيلسوفين : ديوجين ولآيرت بفضل جهل المترجم بالفلسفة على ما يبدو .

أما في التاريخ فهو يذكر مرة أن امبراطورية حمورابي ازدهرت حوالي عام ٣٨٠٠ ق.م ومرة اخرى حوالي عام ١٣٦٠ ق.م ! ويجعل

اول فرعون يحكم في الالف الخامس ق.م/ولعل المؤلف روسي قصد أنه حكم قبل خمسة آلاف عام/كما يورد عبارة عن ثقافة أوروك وممفيس الضخمة قبل الطوفان !!! ... الخ اما في استعمال العربية فلا تكاد تمر صفحة الا وفيها ركاكة ترجمة تكاد تضيع المعنى او خطأ لغوي غريب . فمثلا ، مترجمنا يكاد لا يعرف استخدام الاسم الموصول جيدا يقول مثلا في ص ١٨ (انها اللغة الآرامية والاغريقية تابعتها والملحقة بهما التي تقترب كل منهما من الاخرى ... الخ) والصحيح ان يقول (واللتان) وفي ص ٤٨ يقول (ان الديوان الفرعوني صامت في هذا الصدد وهذا الذي يحلو له ان يقص ادنى الاحداث) والصواب ان يقول (وهو الذي) ..

وفي ص ٦٠ يضع « اللتان » بلا مبرر في عبارته (ان الالفباء واللغة الفلسطينيتين تمتحان من اصول واشكال مصرية بابلية نسختا على هذا المنوال ، واللغة اليونانية والآرامية اللتان كان خطهما استثنائيا مدهشا) .

وهو أيضا لا يعرف أن « بضع » تعامل معاملة العدد من حيث التركيز والتأنيث مع المعدود فيقول في ص ١٤٩ (باستثناء بضعة اوراق بردي) والصحيح أن يقول « بضع » لان مفرد الاوراق مؤنث !!!

و في مكان آخر يخطيء في جر جمع المذكر السالم ، يقول ص ٥٨ (ان التأثير المكتوب يبقى وقفا على ثلاث طبقات من الناس : الموظفون /هكذا كأنها ليست بدلا/ ومسؤولوا الحكومة ، الرهبان ، الكتاب العامون) اما ركاكة استعمال الجملة فينبغي ان ننقل ربع الكتاب ان لم يكن اكثر كي نظهر الى اي حد يجيد ذلك الاستعمال ! وثمة امر آخر مهم في الترجمة وهو ان الكاتب لم يكلف نفسه عناء تقديم اي شرح لاي اسم او فكرة او حادثة أو اسطورة وهو امر ضروري جدا حتى للقارىء المتعلم . فهل كان الاستاذ المترجم مستعجلا أم أن ثمة سرا في الامر ؟

انني ارجح ان المترجم لم يكن عند حسن ظن المؤلف الذي اشـاد به وبمعرفته « العميقة » للغتين العربية والفرنسية في المقدمة الخاصة بالطبعـة العربيـة !!

ثم .. هناك تساؤل في النهاية : احقا ان المؤلف لم يذكر مصادره كي يوثق آراءه الجريئة هذه ؟! ام ان المترجم اسقطها ولم يذكر الا القليل النادر منها ؟! امر لا املك الجواب عليه وان يكن من الصعب تصديق الفكـرة الاولى .

ورغم كل شيء فان المترجم يستحق الشكر على مبادرته لترجمة هذا الكتاب الثمين آملين ان يقوم ـ هو او غيره ـ باعادة ترجمته ترجمة افضل مع تزويد القارىء بنبذة مطولة عن حياة المؤلف واعماله ، وما ذلك بالمطلب العسير ، او الامل صعب التحقيق !!(*)

(*) ملاحظة :

كل ما هو مكتوب في هذا المقال داخل (...) فهو ماخوذ حرفيا من النص المترجم . وما بينهما داخل « ... » هو على الاغلب موضوع من قبل كاتب المقال لتوضيح المعنى

شعر:

بيروت

شعر: محمّد عمران

بيروت «١»

فراشةٌ اسمُها بيروت:
قوسُ قزح من النغم على جناح
على الآخر أفقٌ من مطرٍ أسودَ
ولها جسدٌ من لحمٍ أخضرَ، وخناجرَ زرق
ولا وجه للفراشة، سوى ما ترسم القنابل على رماد الأنقاض
بلى، بيروت وجه ليس للأخوات المدن
ارفعوا الأنقاضَ

مرآةٌ اسمها وجه بيروت
متكسرةٌ، وتتاججُ تحت الأنقاض
احذروا الشظايا
هي لا تجرح
هي تؤذي.

لاتشـوّه
تعـري التشـوّه
احذروا الشظايا : إن لها قابليةَ التحول الى اصابعَ لها قابليةَ التحول الى غابـةٍ
احذروا غابةَ الأصابع : ان لهـا قابليةَ التحولِ الى مردةٍ لهم قابلية السير في الهـواء
احـذروا المـردة : مسكونةٌ أيديهم بشهوة الاقتـلاع .
احذروا الريـح ها بـة من هـذه الايـدي

بـيروت «٢»

الاسـيرة بـين المـدن
ترفـل وحـدها بالمخمل الأحمر .
من يحمل للأميرة في تطوافهـا المشتعل اطراف ثوبهـا الذي من دم ؟
مـن يختـار الاحتـراق في حاشـية الأمـيرة ؟
المـوكب يتهـادى ! هـذا عـرس الأعـراس
عـلى الـراس تـاجٌ مـن قنابـلَ
والجسـد مضمّـخٌ بالأريـج الاحمـر .
يـا سـيدةَ اللهب !
كيف نحتفـل ، نحـن الرمـاديين ، بزواجـكِ مـن النـار ؟
ويـا سـيدة الرمـاد !
كيف نزفـكِ ، نحـن المبتلّـين ، الى مواقـد الجمـر ؟
ويـا سـيدة الجمـر !
كيف نلتف حـول موقـدك ، ولا نحتـرق ؟
لنـا اخـتٌ ، نذرناهـا للمـوت
مـاذا نقـول لأختنـا ، ليلـة نلقي بهـا الى المـاء ؟

بـــيروت

شعر : عصام ترشحاني

- ١ -

سقط القياصرة العرب ..
هل ينصب الصيف الذي
شربت حرارته دمي
هل تنصب السنة التي
جرحت عميقاً
بعض اعواد القصب .. ؟
بيروت لم تسقط ..
لكنه الزمن الذي احترقت عقاربه
على مرأى العرب ..

– ٢ –

بـيروت حاصرهـا الغـزاة ،
من الحدود الى وريـد المـاء ،
مـن جـوع الصغـار ،
إلى اندلاع المقصلـة ..
بـيروت تبتلـع الغبار الملهم ،
وناقلات الرعـب ،
والموت المعبا فـوق سرج الطائرة ..
بـيروت حاصرهـا الغـزاة ،
فحاصرتهم بالصمود ، وبالصمود ،
وبالاغاني الباسلة .

– ٣ –

ماذا يقول القصف ،
للوطـن المضرج بالحرائق والسلاسل ؟!
والورد في عصف اللظـى
الـورود اشـلاء تقاتـل ..
ماذا تقـول النـار والانقاض ،
والحمم الثقيلـة والزلازل ؟!
والأرض تورق في الجحيـم
الأرض أشجـار من الفولاذ

في دمنـــا تقاتـــل ..
ماذا تقول الشمس ، والجثث الجميلة ..
والجماجـــم ؟
بـــيروت متراس يقـــاوم
بـــيروت مئذنة النشيـــد
إلى الكفـــاح
ودم يرفـــرف كالحمائـــم
فـــوق ساحات الصبـــاح ...

(حلـــب)

الأبيض اللازوردي

شعر : ابراهيم خليل

تقولين مـاذا
عن الحزن في لحظات السفر ؟
عن الافـق العاطفي
اذا ضخ الكـون بالعطر
عند نـزول المطر ؟

★ ★ ★

تقولين مـاذا
اذا غاض في الليل ضوء القمر ؟
واسكت صوت الحكايات
واتكسر الكون في زمن من حجـر ؟

انت لا تبتغين المراكب في البحر
تخشين كل الخيول
وحتى بساط الرياح تخافينه ،
والزمان العجول
ولا تعشقين من اللون غير البنفسج ،
ماذا تقولين في عاشق دمه من رماد
وفي محجريه التماع البياض الشفيف ؟
انه السندباد ..
شهقة من حنين
الى واحة من رفيف
لحظة ،
ثم يخرج من ظلمة في القرار
باحثا عن مكان جديد
لا مصابيح في الليل ،
لا الشمس تشرق هذا النهار
والمسافر يسرع
لا فرق بين صهيل الجواد ،
وبين زفير القطار

★ ★ ★

ها هو اللازوردي ها هو اللازوردي
ينشر ارادته في المدى

واحمرار البنفسج يطعن خاصرتي كالمدى .
انه الماء من بردى

ودمشق
تجيء من البعد ، من قاسيون
فتقرع ابواب كل البيوت
تجوب الحواري القديمة والطرقات
حارة .. حارة ..
شارعا .. شارعا ..
ـ ارشديني دمشق
الم تسامي قرطبة
قبل يومين كنت هناك
رايتك في الجامع الاموي
تصلين في غابة الاعمدة
تمسحين دموعك بالزفرة الصاعدة
كنت اجمع صوتي لاصرخ في صيحة راعدة
ـ اين لوركا . واين ابن رشد ، واين الخطيب ؟
لم يكن من يجيب
غير ان صهيل الجواد
هزني ـ سائحا في جميع البلاد
اقرا ـ الآن ـ اسماءها
قرية .. قرية ..
بلدة .. بلدة ..
حاملا في دمي قمرا من رماد

فجـأة سطعت عند مرمى يـدي
وردة قانية .
قطرة مـن دم اورقت
في ربيـع الجمـاد
كـان لوركـا
جريـح البنفسج ،
والغنـوة الحانيـة
مثلما كان كل المغنين
جرحى المنـى النائية

★ ★ ★

مـن اللازوردي ..
من ابيض كالنقاء الرهيف
من اثـير شفيـف
واخضرار الطحالب
من حمرة كالبنفسج ، او رعشة الياسمين
من خرير النوافير .. من سلسل الماء
من حلم رائـع كارتداد السنين
تنهض الآن « غرناطة » ، في ثراها الحزين
سأجمع صوتي لاصرخ ملء الفضاء الرحيب
ـ ايه .. يا ابن الخطيب
غنني .. « جادك الغيث »
ان الدموع همت في زمـان الوصال الحبيب

يضحك اللازوردي ..
يصبح ابيض . احمر .. اخضر
حمراء غرناطة الآن ..
تلقاك فيه النساء اللواتي يبعن الورود .
والنساء اللواتي يثرثرن ..
يضحكـن ..
يملأن بالعطر ثلج النهود .
والصغار الذين يخطون فوق بياض الدفاتر
رسوما عن القصر . والنقش . والزخرف المشرقي
والرجال الذين يريدون كل التصاوير
من كل زاويـة أو مكان .

انه قمـر يعربي
في سماء جليدية مـن رصاص .
انه قمر يغرق الآن كل العيون .
بذهول غريب .. ولكنهم يغمضون
يفتحون البصائر .. يسترجعون ..
اقاصيص من زمن الشرق . انهم يطلقون
اصابعهم فوق كل الحوائط .. يستيقنون ..
انها لحظـة الصدق ..

تمضي سريعـا ..
... وغدا ينكرون ..
يملأون المراكب في البحـر

أو يملأون القطارات .. يستذكرون
ـ جرانادا ...
وداعـا .. وداعـا ..
لماذا نجيء اليك تحث الخطى
مـن بـلاد بعيدة
لنشرق بالدمـع
او نضرم الحزن
في كلمات القصيدة .

الأندلس ـ آب ١٩٨١

(١) العنوان مقتبس عن الشاعر الاسباني روفائيل البرتي.

ولك الطلقة في القلب

شعر : محمد الطوبي

أيها الطفل المشرد
لك من ارصفة الحزن رغيف
لك من ذاكرة الجرح البطاقات ،
لك الليلة من جسر الخريف
وطن يقبل في اوج النزيف ..
فتعوّد
طعنة العشق وسيف الأهل
وادخل في عناوين الرحيل ..

خلفك الليل ولا تملك الا وجع العمر ،
كتاب الفقرْ .. فاشهدْ
شجر النفيِ لتأتيك عصافيرُ الحداد ،
الأملُ الكاذبُ والموتُ الجميلُ ..

يــا محمَّــدْ
هكذا تمشي إلى العشق
ومن عوسجة الشوقْ
إلى نافذة البرق لك المرثيّة الأولى ..
لك البُعد المسائيّ من الذكرى
إلى ناصية النسيان تمضي نازفاً تقترفُ السكر ،
تــوحَّــدْ ..

لك من اروقة السكر حقيبة
لك حقل الحلم ، هذا الموسم المزمن
هذا الوطن البائس ، هذا الهاجس القاتل ،
هذا الفرح اليائس .. فاصعد
وانكسر فوق جــدار الجــوع
واكتب شهوة الليلك والدمع ،
وسمٌ شبق الروح مرايا ..

عندما تمضي إلى منتصف اليأس تفقد
آخر الحلم ، محطات الرحيل الشاسع ،
الطلقــة في القلبِ ..
لك الليلة ان تسفح ضوء العمر

في مينائك الطاعن في الغربــة ..
ان تختصر الشوق على الوردة والجرح ،
تامّل خنجر العشق الذي يدخلك الليلة بين الشك والإيمان ..
فاركض إلى موتك منذوراً لعرس امرأة يبتهج الفجرُ لها ..
تزهر في موسمها اشجار ايامك ياقوتاً
ويغشاك امان الموت في حضرتها ..
هذا نعاس الوجع المشعل الحافل بالسكر
يناديك فلا تفتح على قلبك او روحك
هذا الشبق المذهل حتى يورق الجمر بكفيكَ
وتنسى لغةً لا تكشف السر ،
ولا تعطيك مفتاح صعود الصحوة الخضراء ..
انت الشاهد المنفرد المنذور للقتل وقوفاً

يــا محمَّــدُ ..
ايهــا الطفــل المشرَّد
موحشٌ منعطف الياس ،
عميقٌ أرق الأشياء في اجفانك الذابلة ..
الدرب الذي ضيعك الليلة في العشق ،
وانهاك عن السهو انطلاق الياسمين ..
فتــرصَّــد
زهرة الأحزان في عمــرك ..
او سيدة البحر الذي يشطرك الليلة بين الشك والإيمان ..
من اين تولاك جنون العاشقين ؟

إنك القابل للطلقة في القلب
فلا تذهـ بعيداً في الحنين ..
لا تحاول خدر النسيان ،
من يسحبك الليلة من إسرائك الفادح
بين الموت والذكرى ؟.
تجـــدد
أيها الواقف مثل السيف فرداً ،
إنك الآن على بعد دم من طعنة الورد تنام ..
فاقرأ الماء الذي يشهر فيك الحلم
واكتب في المرايا جسد الوردة ..
لا تسأل عن النار ولا من يقتل الأقمار
أو يعتقل الأزهار وباسم الرب ..
دع أبهة الحزن لك الليلة آياتك
من مملكة السكر تلاقيك
على اسئلة الجوع فتيلاً ..
تطلب الآن مزيداً من نبيذ العشق ،
تابع ســورة الجرح
فضاءً واضحٌ في الوقت يأتيك
فلا يشبهك الليلك والدمع ،
ترى عرساً من الالوان ..
تعتاد على الدهشة في إيقـــاع
ما يطلعهُ الجرح فترميك المواعيد شهيا

ونديا كاحتفال الشمع ..
لا تذكر من مينائك الطاعن في الغربة
الا امرأة يقترب القمح كثيراً من يديها ..
علمتك الحلم كي تدخل باب الاعترافات ،
وأعطتك نخيل الصحو والأسماء ..
مرت بين اضلاعك أسراب السنونو
كمساء موغل في صلوات الفقراء ..
ومن السهو إلى الحانة لا تدخل الا غابة الشوق
وتابوتك يدعوك محمّد ..
ايها الطفل المشرد ..
هل تبدلت ؟ لك الليلة أن تخترف العشق
وتمشي في اتجاه امرأة أعطتك هذا الوجع الموصل
بين القلب والذكرى ..
لكي لا يسقط اللؤلؤ من جرحك في هذا الزحام
إنك الآن على بعد دم من طعنة الورد تنام ..

القنيطرة ٢٨ – ١ – ١٩٨٢

قصة

بيروت ما بعد

قصة : صلاح دهني

- ١ -

كان هناك شخص اصلع ممتلىء الجسم يلمّع واجهة دكانه . كان قد شمر كمي قميصه عن ساعدين عبلين ويعمل بنشاط ولكن بغير فرح . وكان المارة يسيرون ـ احيانا بين بقايا الانقاض ـ بشيء من الملل وبرؤوس منكسة . وفجأة توقف صاحب الدكان الأصلع ليرى الى مجموعة شبان وشابات من الاسرائيليين ببناطيل قصيرة يسيرون متضاحكين ضاجين ضمن موكب الناس الصامت . ولدى اقترابهم تناول سطل الماء وجلد المسح ودخل الدكان .

وكان هناك رجل وحيد يجلس على ناصية مقهى الستراند . انه يراقب المارة والسيارات بغير اهتمام . مات الالق في عينيه . لا شيء يعنيه . حتى منظر الاسرائيليين البشع في شارع الحمراء لم يكن ليحرك كوامن نفسه . مثلت له عيناه وجود تلك الوجوه الطارئة . بعض الاسرائيليين كانوا يعتمرون ـ بشيء من التحدي المعلن عن نفسه ـ تلك القلنسوات المستديرة التي يشتهر بها متدينو اليهود .

- ٢ -

تناول الرجل الوحيد شفة صغيرة من فنجان قهوته ، وغاص بصره في السائل الاسود . لم يعد يسمع هدير السيارات ولا ضجيج الاقدام .. غاص اكثر .. اليهود اختفوا من الشارع . غابت الأصوات البشرية الدائمة . اخذ بصره يجوب شارع الحمراء يمينا ويسارا . الدكاكين الأصلع لم يعد له وجود . واجهة الدكان مدمرة . الانقاض تملأ كل مكان . مبان رائعة هي صورة حضارة منفتحة وبؤر نشاط سالف تفغر الآن افواهها ، تتدلى امعاء الطوابق العليا فوق السفلى ببشاعة . شيء ما حدث فغير نظام الاسمنت والحديد والحجر الابيض المنحوت ، قلب عالي الدنيا سافلها . قوالب الابواب والنوافذ الالمنيوم تجردت من زجاجها ، انحنت والتوت في وجيعة . امتزج الازرق بالاحمر بالاصفر ، وتبقت الجدران بسواد الحرائق التي انطفأت للتو ، فيما تدلت اللافتات الملونة واخذت تئز وتئن وتنوس كما الندابات .

- ٣ -

تطور مشهد الهول . غير الرجل ساقا فوق ساق . اصابع يمناه كلها تشد معا على فنجان القهوة . تعبير رعب على وجهه ، ملابسه مغبرة . يحمل الآن طفلة صغيرة بذراع ، وصرة بيد . يركض ويركض

بكل ما أوتي من قوة . بكل القوة التي في ساقيه . خلفه غير بعيد تركض امرأته وقد تجمع تعبير الهلع في حفر وجهها ، تركض وتلاحقه بنظرها . والمدافع تقصف ، والطائرات الاسرائيلية تزمجر وتبعث حممها . جهنم فتحت أبوابها ، والناس يركضون وقلوبهم تطير امامهم . المسافة بين الرجل وامرأته تتقلص وتتباعد ، والاجساد تسبح في الجو ، انقلبت هلامية . المسافة بينهما فاصل موت وحياة ، علاقة حب معلقة باشارة استفهام زرقاء .

كان الجميع يركضون مذعورين ، يلهثون ، يتنادون .. الكل يسعى للخلاص بجلده ، لانقاذ لحمه وعظمه من تثقيبات الشظايا . وحدهم رجال المقاومة كانوا متمركزين وقوفا شامخين في زوايا الطرق ، من حول مدافعهم ، يلقمونها ويطلقون ، يصلون طائرات العدو نارا حامية ، وكأنما لا يعنيهم هدير صام ، ولا انفجار ولا شظايا . كانوا قد اجتازوا برزخ الخوف وتخلوا عن قلق الحياة والموت .

يتوقف الرجل ليدفع بامرأته الطائرة الجنان تحت بوابة نصف مهدمة « هنا ملجأ » .. لا يعرف كيف رأى الكلمتين المنقذتين « هنا ملجأ » . وخلف المرأة اندفع . هبطا عدة درجات . وجوه مصفرة . وجوه مزرقة ، عيون اطفال وسيعة . شعور نساء منكوشة . تعال تعال .. ادخلي ، ادخلي .. ويوسع الحشد الحاشد في الملجأ مكانا للناجيين من الموت اليهودي المجنون .

الطفلة تبكي ، تأخذها الام وتضمها بين ذراعيها ، مع كل قصفة مدفع تبكي ، ومع كل قذيفة تنفجر ترتعد . الاطفال في الملجأ يبكون ، والامهات يهدئنهم . الطفلة تبكي وترتعد . القصف يتوالى ، الدقائق ساعات ، الساعات دهور ، القلوب واجفة ، غضب الكون وآلهة العصور

السابقة واللاحقة يتدفق مرعداً متوعداً ، الطفلة الآن ترتعش باستمرار ، عيناها مالتا الى وراء ، تنفسها بات متلاحقاً ، وعيها صار موجة غائرة وسمكة غاطسة في محيط متلاطم ، النوبة تستمر .

القصف المتواصل لا يدع مجالاً للتاسي . في الملجأ المزدحم عيون الجميع معلقة في السقف المنخفض ، متى سينقض عليهم جميعاً ؟ . وعارف او متعارف يردد باستمرار واذناه تلقطان اصوات القصف : هذا قصف طائرة .. هذا دفاع جوي .. جماعتنا يردون .. والناس يضمون اولادهم ويستمعون ، يرفعون الادعية الى رب السماوات الذي ترتفع مملكته العظيمة فوق الطائرات .

هدير رهيب يقترب .. انفجار .. اثنان .. الثالث هوب ! .. الدنيا تتفجر .. ضغط الانفجار يقذف المحتمين بالملجأ على الجدران ، وبعضهم على بعض . تسيح اشلاء النساء والاطفال والرجال وتتفتت ، تتبادل مواقعها وتلتطم كلها بالجدران التي تفتتت بدورها .. طبقة كثيفة من الغبار تمازج الدم واللحم العاري الذي فقد جلده وتفزر .

الصمت. تساقط آخر الاحجار المفككة من مواضعها . والصمت.. الرجل يتحسس اجزاء جسده . يتحرك . يزيح كتل الاشلاء البشرية والاحجار ونثار الاسمنت ويتحرك . حين ينجلي الغبار تبحث عيناه المحتقنتان بقلق . الزوجة .. البنت .. صمت .. اجساد واشلاء متمازجة بالشراب ، ما هو له صار جزءاً من الغير ، والظل انقلب في عدالة الحرب الى زوال ، وكأنه لم يكن قط . ملجأ الناس صار مقبرتهم.

- ٣ -

عاد وحيداً . عاد كما كان حين بدأ حياته كاتباً في تلك الدائرة الحكومية الاولى التي اشتغل فيها .

مات ابوه ثم أمه . في الحرب الاهلية فقد ابنه اليافع الذي ذهب ليأتي بالخبز فاردته رصاصة قناص . في ذلك الحين ، نعمة ، لم يكن الاسرائيليون قد صبوا حقدهم المجنون على بيروت . نعمة ان يتقاتل الناس فيما بينهم . لم يكن هناك طائرات على الاقل ، ولم تكن هناك قذائف تنصب من البحر ، ولم تكن هناك قنابل عنقودية وفوسفورية وانشطارية وفراغية . تسميات تطير العقل ، ترسانة اصحاب العنجهية تحتوي كل مستجدات ادوات الدمار ، كل ما تفتق عنه العقل البشري الخلاق من وسائل الفتك ، آخر اجيال السلاح الذي ابتدعه اضخم – ولعلها آخر – الامبراطوريات الاستغلالية في تاريخ الانسانية .

– ٤ –

الحرب الاهلية . والموت على الهوية . مسلم ، مسيحي .. وتنطلق طلقة تقضي على هذا او ذاك . هدايا عيد الفطر وعيد الميلاد .. عيد الاضحى وعيد الفصح ، احيانا موقف ما ، كلمة ، ذكرى مشتركة ، اسم صديق ، حبيب ، قريب ، طبيب ، ابن عم ، كانت تلجم اليد عن ان تطلق . شخص ما ينبرى ويقول : « وله عبد ، او وله طوني ، هذا صاحبنا أو ابن ضيعتنا ، او رفيق حينا » ، وينجو انسان من الموت .

تلك كانت أياماً اخرى . يموت فيها الناس ويتيتم الاطفال وتترمل النساء وتمتلىء المستشفيات وتزدحم سلال النفايات بقطع الايدي والارجل المبتورة . سحقاً للموت في كل صوره ، لكن رغم ذلك ، كانت الحياة تسير والآمال تتجدد بالعودة الى السلام ورجوع التآخي . كانت المحلات تفتح، والدكاكين تبيع وتشتري، وساعة الوصول الى العمل الثامنة.

المقتلة بين ابناء البلد الواحد تظل اخف فتكاً وضراوة وقسوة منها في مثل هذه الحرب مع اليهود الغرباء ، الجنون الانساني لا يعرف حدوداً ،

والحقد الاسود يغوص كالبرغي الصدىء في الجماجم . لكن الدم لا يصير ماء . وحين تنجلي السحب الداكنة يعود الوئام الذي لا معدى عنه لأن الكل يجد فيه مصلحة وسلامة .

- ٥ -

تجيش نفس الرجل الوحيد . يرتسم ظل ابتسامة على وجهه وتجتاز عينيه ، لبضع ثوان ، لمعة حنان وضاءة . من حوله في السترالد يزدحم الادباء والشعراء والفنانون ، مخازن شارع الحمراء كلها عامرة مزدحمة ، حركة السيارات والاقدام التي تسعى ، احدى بؤر الحضارة ، مركز المال والاعمال ، المناورات والمؤامرات ، الطائرات والبواخر والجامعات ، العلم والفكر والفن ، مشعل الثقافة المرتفع فوق عالم عربي مضطرب تتآكله عقـــده .

سرحت العينان الى بعيد وقد علوتهما مسحة أسى ، بيروت يـا بيروت .. الزمان الذي انقضى والحياة الحلوة . بهجة العمل وروعـة الكفاح . بيروت التي كانت شعلة ولم تكن لحماً . ياله من غياب ! ماتت بيروت كما يموت الانسان وحبة القمح واللذة ، مجبولة ارضها بالحقد ونزعة التسلط . اشتعلت مثلما يشتعل الربيع ، ثم خمدت فجـأة منهارة فوق الآلام والدموع والزهور البحرية . اعطت واعطت ثم كبت مثلمة ، مكممة ، نازفة ، ممزقة ، فاغرة . لكنها ظلت صامدة ، ظلت تقـــاوم .

- ٦ -

الرجل الوحيد يتململ على مقعده ، يغير ساقاً فوق ساق . يطول به المقام فيما تتغير من حوله وجوه متجهمة ، لا احد يتوقع حضوره ، لا احد يستأخر عودته . يجـدد فنجان القهـوة ، جموع اخرى صامتة

موسومة بفيسم الموت تعبر شارع الحمراء ، وثمة رجال من القوات الدولية تميزوا بين العابرين بملابسهم واشاراتهم الخاصة ، بيروت تسبح في فلك جديد ، ما تنفك عابقة بنفحات مقاومة لم يشهد مثلها التاريخ . انها تلبث ما تزال ، فيما المؤامرة عليها مستمرة .

تطامنت الاوهام والرؤى في راس الرجل الوحيد ، كلا ، فبيروت ام العرابيس لن تموت ، ستظل تقاوم الطواغيت والكهان الملوثين . خلفت احلاماً قدسية ، منارات للمهتدين في الليالي الحالكة .. ستبقى الاحلام حية والمنارات متوقدة ، متوهجة ، وستزقزق العصافير لا محالة ، وتنور السماء البللورية من جديد .

نهض الرجل ، تنفس الصعداء وسار في اتجاه البحر .

الأصدقاء

قصة محسن يوسف

.. زرت بيروت ، وكانت الليرة السورية تساوي ليرة لبنانية . دفعت لرجل الامن في الدبوسية على الحدود ، عددا منها ، وكذلك فعل صديقاي : مصطفى الشعباني من حلب ومحمد الفقير من اللاذقية ، فثلاثتنا كنا دون السن التي يسمح لنا فيها بالسفر ، وقد القى علينا استاذ ـ كما كان يلقبه سائق السيارة ـ محاضرة طويلة عن الاخلاق وضرورة اطاعة الوالدين والامتثال لنصائحهما ، وكان يظن اننا نهرب من القيد الاسري ، الى بيروت الحرية .. وامور اخرى ...

سألناه لماذا يسافر هو اليها ، وعرفنا انه مسافر الى احدى دول الخليج ، وكانت آنئذ تسمى (بالمحميات) ولحق به ، فيما بعد ، زميلنا مصطفى الشعباني ، وغادر الزميل الآخر الى مصر ، اما انا (صابر ابو راس) فاني بعد تلك الزيارة الى بيروت ، عدت الى الوطن وتطوعت في الجيش السوري . تزوجت احدى فتيات قريتي ، وانجبت فتيات وصبيانا ، ورافقتني هذه الاسرة الى كل مكان تواجدت فيه وحدتي العسكرية من العال الى القنيطرة . خان اريتبة . الاحياء البعيدة عن دمشق . القرى القريبة من دمشق . القطيفة .... وشاركتني مهمة التصدي لجميع وزراء حرب اسرائيل ، ولطيرانهم من المتيور الى المستير ، الى الميراج والفانتوم ، واخيرا الأف ١٦ ..

وها انذا الآن .. أعود الى بيروت ، بعد أكثر من عقدين من الاعوام ، الى المدينة التي زرتها وانا يافع ولم استطع زيارتها ، بعد تلك الزيارة القديمة .

ما زلت اذكر ، اننا رحنا نبتسم خفية في المقعد الخلفي ، والاستاذ الجليل يغرق في محاضرته الاخلاقية ، وعندما وصلنا الى طرابلس ، غادرنا الاستاذ ، وركبت مكانه فتاة طرابلسية حلوة ، لا ادري كيف انشأ الصديقان علاقة معها ، فظلت معنا طوال نهارات الايام الثلاثة التي قضيناها في بيروت . اذكر ان بيروت بهرتني في تلك الايام . مدينة النساء في شارع الصيفي . الواجهات الزاهية بالاضواء والالوان . الشاطيء الغارق في ظلال الابنية العملاقة ، والروشة . يومئذ ، قال مصطفى الشعباني :

ـ ليتجمع فقراء الوطن العربي على قمة هذه الصخرة ، ويهددوا حكامهم بالانتحار ، ان لم يستجيبوا لمطالبهم العادلة .

وقال محمد الفقير :

ــ لكن القمة لا تتسع لنا جميعا يا مصطفى ..

اتذكر كلمات الصديقين ، واتذكر الطريق اللولبية الصاعدة من بيروت نحو الجبل . انها الطريق ذاتها التي نمتطيها الآن . قلت للصديقين :

ــ انظرا .. ما ارحب البحر واجمل ظلال الروشة على امواجه ؟.

كان منظر البحر مسرا للغاية ، وكان الشابان كطفلين ، يطلان من قمة الروشة على الامواج الساكنة . طلبت الى سائق العربة العسكرية ، أن يبطيء من سرعته ، فما زال في الوقت بقية لموعد وصولنا الى المحاصرين في بيروت ..

كما قلت امضينا في بيروت ثلاثة ايام ، ولم ازر بيروت بعدها . رحل مصطفى الى دول الخليج ، ومحمد الفقير الى مصر ، وبادلاني عدة رسائل الى وحدتي في الجيش ، قبل ان نلتقي في حرب حزيران ، لكن قبل ذلك اضيف بأن تلك الزيارة لم تبرح مخيلتي ابدا ، لاننا في اليوم الثالث ، لم نجد في جيوبنا قرشا واحدا للعودة الى سوريا ، وكان لا بد من العودة ، وعند المساء ، قبض علينا على مقربة من الشاطيء ، وكنا جلوسا نفكر بطريقة تعيدنا الى اهلنا ، وعندما عرف الضابط الذي يرطن بالفرنسية ، أننا سوريون ، استدعى سيارة على عجل ، اقلتنا الى الحدود السورية ، ومن هناك ، حملتنا سيارة شاحنة ، لسائق يحتاج الى مرافقين ، حتى لا ينام في الطريق ، نتيجة التعب والارهاق ..

توقفت العربة ، واحد رجال الوحدات الخاصة يعترض الطريق . نظر الى وجهي ، وأشار الى جانب من الطريق ، تظلله الاشجار :

ــ سيدي . ضع العربة هناك ، وتفضل لمقابلة قائد المجموعة .

كان علينا الانتظار ، ريثما يمتزج الخط الابيض بالاسود ، ولم تكن سيارتنا ، السيارة الوحيدة أو الاولى التي ستدخل بيروت ، فقبلنا يوجد جنـود وعربات ويمكننا الركون الى الراحـة . وزعت مرافقي تحت الاشجار ، بما فيهم السائق ، وهدأت الى مقعدي في العربة . كنت آنئذ أجلس في المقعد الامامي لعربة عسكرية ، تغادر القنيطرة ، باتجاه دمشق ، وعلى خطوات من الطريق ، رأيت جنديـين يشيران بالتوقف . تأملت الوجهين المغسولين بمزيج من العرق والغبـار ، فتهلل احدهما وهـو يقترب مني :

ــ صابر ؟. يا إلهي ما أرحمك .

استعدنا كل ما مضى . كان الرجلان كمرجلين مما حدث . كيف يحدث هذا ؟. كانت قواتنا ما تزال تقاتل في الخشنية وتل الفخار ، وكانت اذاعة العدو تتحدث عن سقوط القنيطرة التي غادرتها منذ أقل من ساعة . قلت لهما :

ــ يا صديقي . لم تسقط القنيطرة بعد . حتى ولو سقطت ، فسقوطها يعني سقوط الوهم الذي نعيشه .

سأل مصطفى :

ــ أخ صابر .. من تعني بضمير الجماعة ؟.

اجاب محمد الفقير ضاحكا

ــ انه لا يعنينا بالتأكيد .

قلت : ــ صدق العرب والعالم ، اننا قادرون على رمي اليهود في البحر ، والصحيح ان اسرائيل لن تترك احدا منا يمكن رميه في البحر ..

اقترب الجندي المموه من مكاني في العربة . قال :

ــ قائد المجموعة يريد حضوركم .

كان الضابط الشاب يمسك بسماعة هاتف ميداني ، وعندما لمحني ، وضع يده فوق فوهة السماعة :

ـ هناك صعوبات ، فالعدو ما يزال يقصف بيروت قصفا غزيرا ، ويحرك قواته باتجاهنا ، على محور طريق بيروت .. دمشق .

سألت الضابط :

ـ ماذا يعني هذا ؟.

ـ يعني انكم ستبقون في ضيافتنا ، لحين صدور اوامر اخرى ..

قلت وانا اغادر ، مكمن الضابط الشاب :

ـ لكني لا استطيع الانتظار .

اتخذت القرار ، بالعبور الى جحيم بيروت ، وليحدث ما يحدث . تذكرت موقفا مماثلا : كنت اعلم ان وحدة صديقي القديمين ، مصطفى ومحمد ، تتمركز على محور تقدم القوات الاسرائيلية باتجاه منطقة سعسع في حرب تشرين ، وكانت مجموعتي تشكل احتياطا متحركا وحرا لقائد القطاع المجاور لذلك المحور واتخذت القرار ، بدفع مجموعتي ، الى عمق تراتيب العدو ، في لحظات امتزاج الخطين الابيض والاسود ، وهي لحظات ثمينة في ايام الحرب ، ففي تلك اللحظات تعلن هدنة اجبارية قصيرة ، ولهذا يتطلب تنفيذ المهمة ، مهارة عالية وسرعة فائقة .

تدافع الصديقان نحوي ، واوسعاني تقبيلا ، واستطعنا انقاذ عشرات الجنود ، من طوق الحصار ، وعلى مقربة من منطقة الامان ، تناثرت حولي رشقة من سلاح سريع الطلقات .

اندفع المرافقون الى العربة العسكرية . قلت للجندي المموه :

ـ سنتقدم قليلا . ربما نجد مكانا افضل لقضاء الليل ..

تدحرجت العربة ببطء على الطريق اللولبية ، ووجهتهـا بيروت ، وعندما تحول رجل الوحدات الخاصة الى نقطة سوداء ، امرت بايقاف العربة . وزعت المرافقين بطريقة تكفل حمايتنا من جميع الجهات وبعد مسير قليل ، بدت بيروت ، كان عشرات البراكين تلتهم وجهها ، وفي سمائهـا تتوهج أضواء بمختلف الالوان والاحجـام وتأخـذ اصوات الانفجارات مداها الرهيب في آذاننا .

قلت للسائق ان يقود عربته في الجانب المخالف ، وحذرته من الخطأ واشعال النور او ادارة المحرك ، فالطريق تنحدر نحو المدينـة وتكفي السيطرة على الفرامل ، وفي حال تعرضنا للقصف ينبغي عليه الانطلاق بأقصى سرعة ..

انتشرت حول سمسمع ، دبابات ومدافـع ومع ذلك اندفـع جنود مجموعتي ، نحو الوحـدة المطوقة ، ولم تطلق علينا طلقة واحدة . لم يخطر لضابط او جندي معادين ، أننا جنود سوريون ، فمن غير المعقول أن تهاجم قوة صغيرة ، جيشا يقوم بخرق دفاعات حصينة ..

عبرنا الخط الاسود الى بيروت . قذائف قليلة من المحاصرين . لا أضواء في النوافذ . لا عشاق في الشوارع . لا اتجاهات . لا بحر . لا روشة . أين انت يا بيروت الباهرة ؟. اين انت ايها الضابط الذي يرطن بالفرنسية ؟. لا احد . لا ابنية . لا شوارع ، لكننا في بيروت ، وفيهـا يكمن فقراء الوطن العربي .

انفجرت امام العربة قذيفة تستخدم ضد الدبابات ، فأمرت السـائق بالوقوف . لا وجود للجنود الاسرائيليين . من قال ان بيروت محاصرة ؟. صف ضابط عجوز وسائق ومجموعة فتيان من مجندي الجيش السوري يمخرون عباب الحصار ، حاملين الى بيروت الذخائر والمؤن وصفائح الماء . غادرت العربة . ادرت وجهي نحو الظلام وهتفت :

ـ نحن سوريون . .

احسست ان عيونا من خلف الخراب والدمار ، تمد باتجاهنا عشرات الأيدي المشتاقة . وددت لو ألوح لها بكلتا يدي . لو انطلق نحوهـا ، واقبل الرجال العظام . .

اعدت وجهي نحو العربة ، وصوت انفجار شديد ، يعصف بالمكان . . .

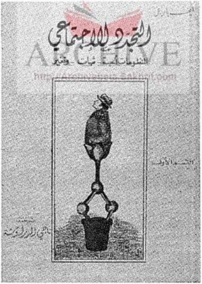
تذكر (صابر) اصابته الاولى ، على بعد مئات الامتار من سعسع . احس بالراحة وهو يملأ رئتيه من عبير الارض . عبير ارض سعسع ذاته يدغدغ حواسه ، ووجهه يلتصق بتراب بيروت ، وقبـل ان يستسلم لرطوبة الارض ، سمع (مصطفى) يهتف بصوت عال :

ـ (فقير) . . هناك جريح على مقربة من العربة .

تخيل (صابر) انه يبتسم . صديقـاه يحاربان ايضا في بيروت . سيفكران انه جاء لاجلهما ، وسوف يبقى هذه المرة معهما . لن يفترقوا بعد اليوم . ان فقراء الوطن العربي يتجمعون في أيام الحرب ، وستتسع أيام الحرب لجميع الاصدقاء . . . .

١٩٨٢/٨

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



افكار

نظرة في ثورة الزنج

عبد الكريم الناعم

ثورة الزنج واحدة من اعظم الثورات في تاريخنا نضالا ، وانحيازا للفقراء ، وبسالة في الدفاع والمصادمة ، وهي ايضا واحدة من الحركات التي اتهمت بشتى التهم المشينة التي تحط من قدرها لتخرجها من دارة (الاسلام) ، لتضعها في مدارات الزندقة والخروج على الايمان ، واباحة المحرمات ، ومثل هذه الاتهامات كانت احدى الوسائل الاساسية التي تلجأ اليها السلطة الغاشمة المتكبرة على الشعب ، المستغلة لخيرات الامة ، وكما هو معلوم فان من بيده السلطة يستطيع ان يطرح الامور من وجهة نظره المرتبطة بمصلحته ، والمتاثرة بها ، والآراء التي يقذفها يجب ان تجيء في خدمة تلك المصلحة لانها الحضور الكلامي ، او

الاعلامي ، والفكري ، لما تؤثره التشكيلة الاجتماعية القائمة ، والمعنية ، والذي هو احد تجلياتها في بنيتها الفوقية ، وقد تأخذ هذه الآراء . وتلك الطروح المضادة صيغ المسلمات ، والبدهيات ، بالرغم من كونها (حدثا) ، تأخذ تلك الصيغة حتى يقيض الله لها من يكشف الران ، والغبار ، وما علق بها من افتراءات ، وقد يطول مجيء هذا الزمن ، كما حدث بالنسبة لكافة الثورات ، والتمردات التي قامت في تاريخنا، والتي كانت لها نفحة الانتماء للشعب ، ولقضاياه ، وكانت لها صفة الانتصار للحق ، اذ ان اهتمام الباحثين والدارسين التقدميين بتلك الانتفاضات جاء مع الربع الاول لهذا القرن ، وكان الاهتمام بها احد اوجه التعبير عن الالتزام بقضايا الجماهير ، ولذا كان الحماس لها داخلا في دارة نشاطات الاحزاب ، والقوى ، والافراد التقدميين ، بينما ظلت المناطق التي مازال يسيطر عليها الفكر الرجعي في المنطقة العربية سيطرة مطلقة ، ظلت تمنع الكلام عن هذه الثورات ، و (تحرّمه) ، وتنظر اليها من نفس الزاوية التقييمية التي نظر منها الحكام السلفيون، وذلك لان هؤلاء استمرار لمن سبقهم ، في (الفكر) ، و (التسلط) ، والتوجه ، والاستغلال .

لست أزعم انني سأقدم مالم يعرف عن ثورة الزنج ؛ فقد تحدثت عنها كتب التاريخ الشهيرة ، عن الدعوة فيها ، وعن الحرب ، وعن سير المعارك ، وعن الصمود الاسطوري لها ، والكتابات الحديثة تتكلم عن مضمونها الطبقي الرائع ، وثمة مصادر اساسية يمكن ان نطالع فيها كل ، او معظم ، ماعرف عن هذه الثورة ، اهمها :

تاريخ الطبري
العبر لابن خلدون
شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد
مروج الذهب للمسعودي
و ... كتيب صغير للدكتور محمد عمارة بعنوان : ثورة الزنج

كما ذكرت ، لن أقدم جديدا في (الحادثة) التاريخية ، ولكنني (أحاول) ان اقرأ ما بين السطور ، وان استنتج من الروايات ، ـ حتى مابدا منها انه موجه ضد ثورة الزنج ـ استنتج ما يمكن ان يشكل بقعة ضوء تجلو بعض ما الصق بتلك الثورة من تشنيع ، وتجديف ، واحقـاد .

شخصية علي بن محمد :

ابدأ الكلام عن شخصية قائد هذه الثورة : « علي بن محمد » ، لان الكلام عن قائد هذه الثورة خاصة حين ترتسم الشخصية ، شخصية (القائد) عبر (القول) ، و (الممارسة) فانها تلقي الكثير **من الاضواء على التوجه ، وعلى الفكرة ، وعلى الهدف ، وبذلك نحرر مثل تلـك الحادثة من كلمات : « اللعين » ، و « الخبيث » ، و « الفاسق » ، والتي الحقت باسمه من قبل الطبري لنضع محلها كلمات تليق بشخصية بطل ، ثائر ، شهيد ، ولنعطي لتلك الشخصية حقها الذي من اجلـه بذلت دمها ، ولنضيفها الى البؤر المتفجرة ، الناصعة ، المشعة في تاريخنا، والتي نفاخر بها ، لا باللذين عكفوا على الجواري والغلمان والانحرافات المادية والمعنوية ، بينما كان الوطن يتهدم ، ولنجعل من تلك الشخصية وامثالها قبلة تربوية نفتح اعين الاجيال عليها ، لتعتز بها ، ولتنتمي الى سلوكيتها ، ولتنحاز الى جانب الحق الذي هو لاشك في جانب الفقراء .**

قد لا يهمنا في قليل او كثير ان يكون « علي بن محمد » من نسل الائمة (العلويين) ، ولقد اتهمه بعض المؤرخين بانه ادعى ذلك النسب ليجمع الناس من حوله ، وما من عاقل يعتقد ان الناس يلتفون لدرجة حمل السلاح حول كل من ادعى ، او اثبت ، انه من نسـل (الامام) .

هنا لابد من التذكير بأن معظم الثورات ، والتمردات التي قامت ضد حكام ذلك الزمن كان يقودها « على وجه الخصوص ثوار علويون » كما يقول الدكتور عمارة . .

ـ سنة ٣٤٨ هـ ثار بالكوفة ابو الحسين يحى بن عمر احد احفاد عبد الله بن جعفر .

ـ سنة ٢٥٠ هـ ثار بطبرستان الحسن بن زيد احد احفاد الحسن بن علي واقام دولة استمرت عشرين سنة .

ـ سنة ٢٥٠ هـ ثار محمد بن جعفر احد احفاد الحسين .

ـ سنة ٢٥٠ هـ ايضا ثار بقزوين الحسن بن اسماعيل احد احفاد الحسين بن علـي .

ـ سنة ٢٥٠ هـ ايضا ثار الحسين بن محمد احد احفاد الحسن .

ولعل تصدي هؤلاء القادة لحمل اعباء النهوض بعمل صدامي ضد السلطة الاستغلالية ، الباطشة هو الذي جعل الناس يستجيبون لمن يرفع صوته وسلاحه ويطالب بالعدل .

ان هذا لا يعني ان جميع احفاد علي قد حملوا السيف مكافحين ، مناضلين بل ثمة من جلس صامتا ، مبتعدا ، وثمة من اقترب من مواقع السلطان ، وهذا يجعلنا نفضل التاكيد على **(الانتماء المبدئي)** للحق، وللثورة ، دون ان نؤخذ بفكرة (النسب) ، فمن كان في نسبه العملي، الفكري ، منتميا للثورة ، ويتصدى لكل اشكال الاستغلال ، فهو ابن ما ينتسب اليه ، لذا ارى ان التأكيد على النسب (المعنوي) هو الاهم، لان ثمة من يستطيع تقديم شجرة نسب تصله باناس عرفوا بصلابتهم في الانحياز للحق ، ومع ذلك فان حملة تلك الشجرة ، والمنتمين لورقها ، كانوا مثالا في خدمة الظلمة ، او في الظلم ، وفي السير في ركاب الجور .

انطلاقا من ذلك نقول ، للتحديد ، وللتاريخ ، ان علي بن محمد ينتسب الى تلك المواقع الفكرية المشرقة بالانتماء للعدل ، ورفض الظلم.

ولد في (ورزنين) شمالي ايران ، وكانت نشأته فيها ، ولا يلغي نسب رجل ان يجتمع المحيطون بجلال السلطان من تلك العائلة «المميزة» بنسبها ، لا بتجسيدها للاخلاق المتوقدة سلوكا ، ودفاعا عن كل ما هو حق ، لا يلغيه ان يقولوا انه مطعون في نسبه ، وانه ليس منهم ، فليس اسهل على السلطة ، اي سلطة تفضل الانحراف ، من ان تستصدر مثل هذا الاشهار من قبل من يبتاعون بالعاجل ، الزائل الاجل ، الراسخ ، ونحن اذ نرجح نسبه ، فلاننا نرجح الشك بمعظم ما يتعلق بسلطة ذلك الزمن ، خاصة فيما له صلة بالامور التحريفية ، وبالانتفاضات ، والثورات .

لنأخذ بعض ابرز ما اشتهر به « علي بن محمد » ، لنصل من خلال شخصيته الى رسم صورة واضحة لقائد تلك الثورة ، تلك الصورة التي لابد أن تنعكس على حياته وحياة من حوله ، وعلى الثورة ككل .

كان علي بن محمد قائدا عسكريا بارعا ، ومما يدل على شخصيته العسكرية ، وحذقه في الحرب ، وفي تسخيره معارفه الفلكية لصالح المعركة انه اخذ اصطرلابا فقاس به الشمس ، وحدد الوقت ، فتنبأ باتجاه الريح ، ثم رسم خطته في المعركة ، وهبت الرياح حسبما توقع ، شديدة استنادا الى ذلك القياس ، فدفعت سفن اعدائه نحو الشاطىء الذي يسيطر عليه عسكره ، فاندفع اليها جنوده .

و .. « نظر مرة في حساب النجوم ، فوقف على انكساف القمر ليلة ١٤ شوال سنة ٢٥٧ هـ فتنبأ بتوقيت نصره على مخالفيه » .

لا نعلم على ماذا استند في تلك النبوءة ، على علامة الكسوف كعلامة فلكية تعتبر في ذلك الزمن اشارة دالة على وقوع احداث جسيمة ، كما هو لدى العامة كإرث من تلك الايام حتى الآن ، أم انه وقت هجومه في تلك الليلة فباغت اعداءه .

على اي حال فان مثل تلك النبوءة ان لم يكن لها من فائدة سوى الاثر المعنوي الذي تتركه ، حيث تمتلىء نفوس الثوار بالثقة والنصر ، لو لم يكن لها غير ذلك ، لكفى ، ولكان دليلا على بعض جوانب شخصية ذلك القائد ، فاذا ربطنا بين ما كان عليه الناس من ايمان كبير بالمغيبات ، وبالكرامات ، ازداد وثوقنا بمعرفة علي بن محمد باهمية رفع الجاهزية النفسية للمقاتلين .

الواضح أن علي بن محمد كان يرى الثورة كلا متكاملا ، لا تقبـل التجزئة ، فالثورة على الاستغلال والظلم يجب ان تدعم بموقف اخلاقي يحمل (طهر) الثورة ، بمعنى ان تكون (الوسيلة) منسجمة كل الانسجام مع (الغاية) ، وان اية جزئية ، مهما صغرت ، يجب ان تتسق مـع الهدف الكبير ، اي ان يكون السطوع صفة ملازمة لكل التصرفات التي يمارسها المقاتلون ، وفي هذا الجانب تتجلى القيمة التربوية ، الاخلاقيـة الرائعة ، لجعل الفرد مسؤولا عن تجسيد مبادىء الثورة في ادق الجزئيات بالعمل كما بالاعتقاد ، ومثل هذا الرسوخ قليلا ما نعثر عليه الا في الحركات الفكرية العميقة ذات الصفة الجماهيرية المنظمة تنظيما ذكيا ، ممتازا .

ليس المطلوب الانتصار العسكري على حساب الجانب الوجداني ، الاخلاقي ، بل المطلوب الانتصار على اخلاقيات الحرب التي كانت سائدة في ذلك الزمن ، والتي كانت ملاءمة تمام الملاءمة لبنية ذلك المجتمع المليء بالاضطهاد ، والجبروت ، والقتل ، والتحكم . اضافة الى أهمية الانتصار العسكـري المطلوب : انتصار في الذات . .

تروي الكتب أن رجلا من انصار علي بن محمد قتل على يد رجل من احدى القرى ، ولم يعرف من هو قاتله ، فطلب رجاله منه أن يسمـح لهم بانتهاب القرية ، ومعاقبة اهلها ، فكان جوابه :

« لا سبيل الى ذلك دون أن نعرف ما عند القوم ، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم ، ونسألهم أن يدفعوه الينا ، فان فعلوا ، والا ســاغ لنــا قتالهــم » .

هذا الموقف الصارم اخلاقيا يرفع حكم السيف الناجم عن ردة الفعل العشوائية ليحكم العقل ، ليضع المبدأ قبل الشفرة ، وليطرح موقفا انسانيا ذا علاقة عميقة بنظرته لاحترام الانسان الذي من اجله تقوم الثورة ، يطرحه على انصاره كما يطرحه على اعدائه .

لاشك ان أهالي القرية امتلأت نفوسهم بالجزع ، اذ يكفي ان تصدر ايماءة ، أو حتى ما يشبه الموافقة حتى تسبى القرية ، ولكنهم حين يرون ترجمة التوجه الثوري بالكلام الصارم ، العادل ، المحدد ، ينتفي الخوف من « أن الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة » ، لان الثورة ليست (ملكا) ، بل هي نهوض بالكلمة والسيف من اجــل العــدل وكرامة الانسان .

بمثل تلك المواقف الرائعة تكتسب النفوس ، ويصبح الجود بالنفس خيــارا لا بديل لــه .

في حادثة ثانية بعد أن دخل عسكره قرية (الجعفرية) وسبيت ، قــال :

« الا برئت الذمة ممن انتهب شيئا من هذه القرية ، أو سبى منها احدا ، فمن فعل ذلك فقد حلت به العقوبة الموجعة » .

انتبه الى انه لم يقل فقد حلت به اللعنة ، لان اللعنة قد يتحملهــا الطماعون ، وأصحاب الدنيا لدرجة السقوط ، ولكنه قال : « حلت به العقوبة » ، اي الملاحقة بالقانون ، ليكون القانون سندا تنفيذيا للمبادىء التي من أجلها يقاتل المقاتلون ، وبها يحلم الحالمون .

الذين التحقوا بالثورة يحملون الكثير من رواسب وعادات (الغزو) و (الحرب) ، واخلاق الانتهاب ، وبالابتعاد عن المصادر الصافية للتوجه النقي الذي حرم قتل الشيوخ ، والنساء ، والاطفال ، ونهى عن قلع الاشجار ، وردم الابار ، بالابتعاد عن روحية الثورة في ايام مجدها الانساني ، المتقدم ، الاخلاقي ، حلت أعراف جديدة ، منها الاستباحة ، والسبي . هذا في الحرب . الحرب التي تقوم بدافع الانتقام ، والتأديب، وانزال الضربة المخيفة ، التي تصدر عن قتامة ذالة ، منتقمة ، اما في الثورة ، وحسب معاييرها الانسانية فمن (انتهب) ، أو (سبى) : برئت الذمة منه .

مرة اخرى . ليس النصر نصر السيف وحده ، بل الانتصار على الاعراف الحاكمة السائدة ، انه الجمع بين الجهادين : الاكبر والاصغر ،في معركة تبدو الارجحية فيها للضربة القاصمة ، الا ان اخلاقية القائد الثائر ، تابى ذلك ، وترفضه ، بما فيها من عمق ، ووعي لجلال المبدأ .

في حادثة ثالثة ظفر رجاله بألف وتسعمائة سفينة للحجاج فلم يأسرهم .

في (عبادان) حين لم يقاتل أهلها ضد الثورة اكتفوا من تلك البلدة بتحرير الرقيق ، واخذ السلاح ولم يتعرضوا للناس بمكروه .

تحرير الرقيق كان كهدف من أهداف الثورة التي نستطيع ان نطلق عليها انها طبقية ، وتحريرهم كعنصر بشري ينتقل من العبودية الفاشمة الى الحرية الناصعة ، وقد لا يجد الكثيرون منهم ؛ من المحررين ـ بفتح الراء ـ ما يعبرون به عن انسانيتهم الا القتال في صفوف الثورة ، للوصول الى غاياتها الكبرى . اما السلاح فهو العدة التي لابد منها لكل معركة .

ما عدا ذلك ليس المطلوب اراقة قطرة دم ، لان القتال الذي هو كره كما يقول الكتاب الرباني الكريم ، القتال الذي لا تحرير الا به يكون ضد الاعـداء .

علي بن محمد (صاحب الزنج) يرى الفساد في القصور ، وفي غلبة الاتراك على كل شيء ، قادة ، وجنودا ، من قتل للخلفاء وتنصيب للبدائل ، الى الجباية الظالمة والهيمنة على كل المقدرات .

يرى كيف تساقط عدد من الخلفاء العباسيين صرعى السيوف التركية حين حاول بعض اولئك الخلفاء انقاذ البلاد ، والعباد ، يرى ذلك فيشتعل فيه حس الشاعر الفارس الذي يحدد انتماءه بجـلاء مليء بالاخطـار ، فيزفر :

لهف نفسي علـى قصور ببغداد
وما قـد حوتـه مـن كل عاص
وخمور هنـاك تشرب جهـرا
ورجـال علـى المعاصي حـراص
لست ابـن الفواطم ان لـم
اجـل الخيل فـوق تلـك العراص

القصور ملأى بالعصاة الحريصين على ارتكاب الفواحش ، والظلم ، الخمور تشرب جهـرا . .

الترف والعصيان لا يقدمان غير ناتج واحد : الظلم ، والكفر ، بكل ما لهما من مداليل مادية وروحية .

ما الذي يفعله الثائر في مثل هذه الحالة ؟

خيار واحد لا غير ان تجول الخيول حول تلك العراص ، في عمـل كبير هو بحجم طموحات الامة وامال الجماهير .

من يحمل تلك النفس الكبيرة ، وبفضل حمل السيف ، والقتال المتواصل عشرين سنة ، واحدة بعد اخرى ، كل واحدة ربما كانت أقسى من سابقاتها ، من يحمل في دمه قدر الثوار ، ويرسم حدود انتمائه ، تصغر لديه قيمة حياته الخاصة كفرد ، ثمة ما هو اكبر ، ماهو اعمق واغلى : حياة الشعب ، لذا لا عجب ان يرفض النجاة الفردية ، ان يرفض الثراء الخاص ، ان يرفض المساومة .

قيل له في عرض مقدم من قبل سلطة ذلك الزمن ، حيث كان يخطب للخليفة المعين ، والحكم الفعلي بيد الجنود الاتراك وحلفائهم من المستفيدين ، وكان المستفيدون احيانا الابناء او الاخوة ، قيل له :

« انت آمن على نفسك حيث سكنت من الارض ، لا يعرض لك احد ، واردد هؤلاء العبيد على مواليهم . وآخذ لك عن كل راس خمسة دنانير » .

حين اختار الثورة لم تكن الارض التي كانت للدولة العربية ضيقة عليه كعلي بن محمد ، كانت الارض ضيقة بما عليها من الفساد والظلم .

ماذا يريدون ؟

رد العبيد الى مواليهم :

اعادتهم الى الرق ، والاستعباد ليعملوا في ظروف لا تحتملها طاقة الاجساد البشرية ، من اجل ان يزداد ثراء التجار واصحاب القصور والاراضي الواسعة .

مساومة اخرى ..

لك الامان ، وعن كل راس تسلمه خمسة دنانير .

اذا علمنا ان الف دينار من دنانير تلك الايام كانت مبلغا ذا قيمة نعرف حجم الثروة المبسوطة بين يدي (صاحب الزنج) .

ليس المال ، ولا الامن ، بل الثورة ، ولكي يكون الفعل بحجم الطموح فقد عاد مرة الى عاصمته (المختارة) بعد ان اضطروه للهرب منها ، عاد اليها مرة ثانية ، وقاتل بمن معه حتى قتلوه واحتزوا راسه ، وحملوه على سن رمح ، ودخلوا به بغداد ، بغداد الاتراك والطواغيت المستغلين ، لا فرق في ذلك بين عربي واعجمي .

لم يكن ليتراجع فقد خلع عنه اعراض الدنيا من اجل ما هو اجل واعظم :

« اعلمهم انه لم يخرج لغرض من اغراض الدنيا ، وما خرج الا غضبا لله ، ولما راى عليه الناس من الفساد في الدين » .

و « ها انا معكم في كل حرب ، اشركهم فيها بيدي واخاطر معكم فيها بنفسي » .

كيف لا يستجيب المضطهدون ، _ بفتح الهاء _ لمن يخرج من حياة تبسط لصاحبها كل ما يريده من الحياة وملاذها ، يخرج منها ليدعو الناس الى حمل السيف والدم على راحة واحدة ؟

غضب لله وفي الله

انتصار للحق وللحرية لدرجة الدخول الى ميادين الموت .

يدا بيد ، كتفا الى كتف ، في القتال من اجل معاني الثورة التي قاتل محمد (ص) تجار قريش عليها ، وكافح كبراءها حتى الطائاة .

ويمكننا ان نستنتج ان علي بن محمد مهّد لثورته بالدعوة ، واثارة النفوس على البغي ، وعلى الطغيان ، فقد « طاردت الدولة علي بن محمد وانصاره ، ودخل السجن عدد من اتباعه ، وفيهم ابنه الاكبر ، وابنته وزوجه »

لم تكن التربية الثورية والاعداد للشرارة من نصيب الانصار فقط ، بل (الابن) ، و (الابنة) ، و (الزوجة) ، وفي ذلك يتجلى سمو الايمان الذي قاد الزوجة والابنة الى السجن .

هل كان علي بن محمد يؤمن بدور المراة ايضا ، وبعدها ؟

ذاك ما كان وسيجيء التفصيل فيه .

علي بن محمد ، صاحب الزنج كان قادرا على استيعاب الحالات الطارئة ، يواجهها بالعقل المتفتح ، بالرحابة التي تركها الرسول العربي للعقل في غياب النص ، الرحابة الموازية لجوهر التوجه في الرسالة العظيمة .

اخذ عليه اعداؤه بعض المآخذ ، وهم ان لم يجدوا شيئا فلا بد انهم مختلقون مايرضي سيد السدة الجالس تحت رحمة الاحذية التركية ، او تحت رحمة نزعاته الخاصة ، المتردية ، مكتفيا من الملك بصك اسمه على العملة ، وبذكر هذا الاسم على المنابر المتهاوية .

حين بلغ الحصار المضاد للثورة حدا لا يستطيع بشري ان يتحمله .. حين افتقدت اللقمة ، والامن ، والحياة ، حدث بعض ما يحدث في مثل هذه الحالة ...

نبشوا قبور الموتى وباعوا اكفانهم

اكلوا لحوم البشر الميتين

و ..(كان الخبيث لا يعاقب احدا ممن فعل شيئا من ذلك الا بالحبس فاذا تطاول حبسه اطلقه) .

مبدأ : « الضرورات تبيح المحظورات » لا يفطن اليه أحد .

ان تجوع حتى تضطر لاكل لحم الميتة ،

ان ترى تغلّب البغي على الحق .

ان تندحر بما تحمله في دمك من ارث التمرد على الباطل .

كل هذا لا يفطن اليه من اجرى قلمه بما يرضي صاحب(البدرات)، اما ان تدافع الموت بلقمة لا تأكلها الا وانت مكره ، فذاك ما يجب ان يؤاخذ عليه علي بن محمد حين يكتفي بالحبس ، كان عليه ان يصب عليك نفطا وكبريتا ويشعل فيك النار حتى يرتاح وجدان بعض المؤرخين .

علي بن محمد جمع فروسية الفارس القائد الى حساسية الشاعر ، الفنان ، وتلك صفة من صفات الثوار النادرين .

فصيحا كان ، والفصاحة عند العرب ، الى حد ما هي في مرتبة السيف ، والكرم ، ولذا امتلأت الصفحات باخبار الفرسان ، والاجواد والفصحاء .

شاعرا كان ، اطلق شعره في الامداء التي القى فيها بروحه :

وانـا لتصبح اسيافنا
اذا ما انتضينا ليوم سفوك
منابرهن بطون الاكف ،
واغمادهن رؤوس الملوك

حين يبلغ مد الظلام ذروته ، وتكاد تنكسر قنطرة الجلد ـ بفتح اللام ـ المقتحم ، بشيء من الاسى يخاطب نفسه ، الاسى لا على الذات ، بل هو الاسى من الخوف على الثورة :

واذا تنازعني اقول لها قري
مـوت يريحك او صعود المنبر
ما قد قضى سيكون فاصطبري لـه
ولك الامان من الذي لـم يقدر

لم يكن صعود المنبر طلبا لجاه ، او لمجد فردي ، بل صعوده لتهتز اعواده للكلمة المنتفضة الثائرة التي رفضت الظلم والاستغلال .

ان لم يكن هذه فذاك ، وهو الموت ، حتى ان اقتضى الامر العودة الى المعركـة مـرة ومـرة .

بعاطفة الشاعر ، الفارس ، القائد ، الانسان يحدث الدار التي كتب عليه ان يغادرها :

عليك سلام الله ياخير منزل
خرجنا ، وخلفناه غـير ذميـم
فان تكن الايـام احدثت فرقـة
فمن ذا الذي من ريبها بسليـم

ان البنية الشخصية لاي قائد ثوري تؤثر تاثيرا بالغا على الثورة ، لانها تدخل في عملية التهيئة ، جذبا وفاعلية ، وتلعب دورها في تحديد المسار الاخلاقي والتطبيقي ، فاذا لم ننس ان علي بن محمد لم يأت بمبادىء غريبة ، بل فهم الاسلام ببعده الانساني العميق ، ندرك ان شخصيته ، كما هو الحال في كل عصر ، بالنسبة لشخصيات القادة ، كانت عاملا ذا خصوصية متفردة في مجمل التحرك الذي قاده خـلال عشرين عاما مـن النضال .

حين نذكر لينين ، وماوتسي تونغ ، وعبد الناصر ، برغم التفاوت ، واثارهم في القيادة التي تصدوا لها نعي بشكل ادق اهميـة شخصية (القائد) في اية مواجهة ، فكيف بها حين تكون المواجهة تصديا للظلـم والقهـر والانحراف .

ان شخصية كتلك لا يمكن ان تكون مع غير الحق ، بل هي مـع النصاعة ، ومع رفض القيم الرثة .

لست ازعم ان تلك الثورة لم ترتكب اخطاء تؤاخذ عليها ، فـذاك وقع ، ووقعت فيه أعظم الثورات ، غير ان الخطأ شيء وما حفلت به كتب

تاريخ (السلطة) شيء اخر ، فهي تتحدث عن صاحب الزنج لتقدم لنا صورة شوهاء ، مارقة من (الدين) ، و (المجتمع) ، والمؤرخون الملحقون بأذيال السلطة يستجيبون للمال المدفوع . تلك جولة من جولات الباطل ، أما جولة الحق فهي ، الى حد ما ، في تقديم هذه الثورة ، وما شابهها من خلال رؤية علمية ، خاصة ، تكتشف حقيقة المجريات كما يكتشف المنقبون اثار مدن بكاملها كانت مدفونة من قبل .

عروبة ثـورة الزنـج :

في الستينات ارسلت قصيدة لمجلة شهيرة في دمشق ، وكنت قـد اختتمتها بهذه الجملة :

يا ايها الزنـج استفيقوا

بعملية اسقاط طبقية ، معاصرة ، وكان رئيس تحرير تلك المجلـة اقرب الى الصداقة ، والالفة ، فاعتذر عن نشر القصيدة ، وارسل لي رسالة يبدي فيها حرصه على ان نظل اصدقاء ، ويبسط رايه الـذي خلاصته انه لا ينشر في مجلة هو رئيس تحريرها قصيدة ترفع اسم الزنج الذين حاولوا القضاء على الدولة العربية ، وعلى الحضارة العربية آنـذاك !!!

الواضح من هذا الكلام ان صديقنا مع الانتماء القومي ، بمفهومه المعلن ، وأن يكن مفهوما غير محدد او ربما اختلفنا معه فيه ، وهومتمسك به ويحافظ عليه ، ولم يكن وحده بذلك ، بل الدعوة القومية ، الاشتراكية تحديدا مانزال الخيار الذي لا بديل عنه لهذه الامة ، وهذا لا يلغي ان الاختلاف يقع في تقييم ما هو تاريخي ، وهو عميق بقدر بعد احدالاطراف عن الاشتراكية ، وما هو تاريخي مازال له حضوره باشكال متعددة ، اي انه فاعل في تحريك المشاعر ، وفي تحديد بعض الافكار والتوجهات ،

لذا تبدو العودة لما هو تاريخي ، للنظر فيه ، ولتقييمه من صلب العمل لما هو حاضر ، ولما هو مستقبل ايضا ، ولذا لابد من طرح السؤال التالي:

هل كانت السلطة عربية في ذلك الوقت ؟

هنا لابد من العودة الى معنى العروبة الذي اختلف بحسب الازمنة ، وبحسب بعض الاجتهادات . منذ التأسيس الاشمل ، الاعمق اثرا ، في في التوغل والامتداد قال الرسول (ص) :

« ليست العربية من احد منكم بأب ولا أم ... »

المبدا الذي وضعه القائد الاول كان : **تكلم العربية ، والاخلاص للعرب . هنا ايضا يجب الانتباه الى ان العروبة والاسلام لم يكونا متضادين ، بل** كانت (العروبة) اسم الانتماء القومي ، و **(الاسلام) : المبدا الذي حمله العرب وخرجوا به خارج جزيرتهم ...**

في العهد الاموي ، وبعد الصراع الدامي في (صفين) وغيرها انتقل الحكم من عفوية خلافة المدينة والكوفة وبساطتها ، واعتبار اية مسؤولية واجبا دينيا ، اخلاقيا ، هذا الشيء انتقل نوعيا ، وبحركة ذكية قادرة على (ملك) ، بكل ما تعنيه كلمة ملك من علاقات ، وسيطرة ، وتسلط ، ابهة ، ومؤامرات ، واقطاع ، وطروحات فكرية متفقة مع ذلك التوجه ، ومنسجمة معه الى ابعد حد .

المبدا الذي كان الاساس في تحريك فقراء مكة ، بداية ، وفي انتماء فقراء المدينة للاسلام ، وغير فقرائها ايضا ، هذا المبدا تمت زحزحته عن موقعه التي هي له ، وبدأ غزوه بـ (المجتهدين) ، والمتقولين **ممن وظفوا بغرض نقل الدين الى خانة وضعه في خدمة السلطة ، بدلا من كون السلطة خادمة للمبادىء التي حملها النبي العربي (ص) ، وخاصة فيما يتعلق بالتنظيم الاجتماعي الاقتصادي ، وتركت الطقوس لانها لا تؤثر في الواقع**

الاجتماعي ، وبذا فقد كانت مظهرية المحافظة على الطقوس هي الغطاء لتبرير استغلالية الناس .

في تلك المرحلة ، اعني البدايات ، كانت السلطة عربية مائة بالمائة . من بيده السلطة ، ومن يقفون معه ، حتى الذين ناوؤا تلك السلطة كانوا عربا ، بل لشدة الحضور العربي لعب الامويون لعبة ضرب القوى العربية بعضها ببعض ، بهدف توازن يحفظ لهم احكام قبضتهم ، ويتيح للبيت الاموي ان يصفي حساباته الاموية في صراع علني ، ومكشوف ، للوصول الى قصر الخضراء .

انذاك ، كان النسب العربي هو الهوية ، ولست بصدد الحديث عن العطاء الحضاري الذي ارتفع صرحه ، لانه ابداع الشعب ، وليس من عمل الحكام ، ويمكن القول ان عملية الابداع الحضاري كانت متاحة لانها لا تتعارض مع السلطة ، ولا تهددها .

بعد سقوط الحكم الاموي وقيام الدولة العباسية ، ومضي الخلفاء الاقوياء من بني العباس ، وفي الفترة التي قامت فيها ثورة الزنج كان القادة الاتراك قد سيطروا سيطرة مطلقة على (القصر) مرة اخرى لست بصدد الحديث عمن استقدم الاتراك ، والغرض من الاعتماد عليهم ، فذلك موجود في معظم كتب التاريخ ، غير ان ما يهمنا من كل ذلك ان قادة الجند الاتراك كانوا هم الحكام الحقيقيون وخاصة في الفترة التي قامت فيها ما اسموه ثورة الزنج ، فقد كان القادة الاتراك يعزلون الخلفاء، ويقتلونهم ويعذبونهم ، ويسجنونهم ، وهذا كان سمة من سمات تلك المرحلة ، ولم تنجح محاولات بعض الخلفاء الذين كانت رغبتهم عارمة في القضاء على النفوذ التركي في القصر ، بل عاجلهم الاتراك بالتصفية .

بهذا المعنى صار لعروبة الحكم معنى اخر ، اذ كان راس السلطة الذي هو الخليفة ، عربيا ليس لان عروبته ذات قيمة تذكر ، بل لان صيغة الحكم كانت وراثية في اسرة بني العباس ، كما كانت في الذين قبلهم من

الامويين ، ولان اسقاط السلطة نهائيا ، واقامة سلطة بديلة ، تركية ، أو غير تركية ، لم يكن ممكنا ، لعدة اعتبارات ، لذا اكتفى القادة الاتراك بالسيطرة غير المنظورة، يأتون بمن يناسب مطامعهم وتسلطهم من الخلفاء . يخلعون ويقتلون من تسول له نفسه المساس بشيء من سلطتهم .

هكذا كان الجالس على الكرسي الكبير ، والذي يذكر اسمه على المنابر ، وتصك باسمه الدنانير ، كان عربيا صورة ، وهيكلا ، وبما عدا ذلك فقد هيمن الاتراك على كل المقدرات ، في القصر ، وفي السوق التجارية ، وفي جباية الاموال ، وفي امتلاك الارض ، وبدا لم يبق من العروبة سوى الابداع الحضاري الذي قدمه الشعب في مختلف المجالات: بنيان . اقنية . مؤلفات . علوم .....

وباحكام القبضة العسكرية التركية بذلك الشكل المزري فقد كان الاتراك يمهدون لسقوط الحكم العربي ، عبر التمزق الذي اصاب اطراف الدولة بداية ، ثم بانتشار الضعف الذي دافع بها الى ايدي العناصر غير العربية التي تسيدت لزمن طويل .

ترى أين العروبة في سلطة مثل هذه السلطة ؟

البحتري يقول :

اصبح الترك مالكي الامر والعالم
ما بين سامع ومطيع

البيتان الشائعان :

خليفة في قفص
بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له
كما تقول الببغا

كل هذا يبين ان العروبة لم يكن لها أي حضور في (القصر) ، ولا في (الجيش) الذي صار جيش اتراك بالدرجة الاولى .

العرب والعروبة كانت في صفوف الشعب المقهور ، في الحواري* البعيدة ، في الارياف ، بين القبائل ، كانت نسبا ، وتطلعا لشيوع العدل ، ولذا فقد كثر الخارجون على الخليفة باسم (المنتظر) الذي (يملأالارض عدلا كما ملئت ظلما وجورا) ، وفي كل مرة يجد من يقاتل معه ، بالرغم من ان عسكر القصر ولا اقول عسكر الخليفة كان يبطش بطشا مروعا بالمتمردين والثوار ، لا اقول عسكر القصر تبرئة للخليفة لان تراكم الامور المنحرفة ، السائبة ، هو الذي اوصل الامور الى تلك الدرجة من التردي .

بالمعنى ذاته يصبح طلب العدل ، والثورة على الظلم : هو العروبة الحقة ، بعيدا عن كافة الحساسيات الفئوية التي حاولت أن تسبغ على العروبة مذهبية خاصة ، وكانت مدفوعة وراء ذلك بدوافع مصالحها الطبقية ، والاستغلالية .

على ضوء ذلك يمكن ان ننظر في عروبة ما اتفقوا ، تاريخيا ، على تسميته بثورة الزنج .

من حيث العناصر المقاتلة التي انضمت الى الثورة التي اعلنها علي ابن محمد فقد شملت : العرب ، والزنج ، والنوبة ، والقرامطين ، والفراتيين ، وكانت بداية دعوته في منطقة البحرين ، وهي منطقة قبائل عربية صرفة ، حتى ان احد المؤرخين يقول :

« واحله اهل البحرين محل النبي حتى جبي له الخراج هناك ، ونفذ حكمه بينهم ، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه» ، وليس قول المؤرخ إنهم أحلوه محل النبي الا واحدة من تلك التهم الفادحة التي كانت تلحق بمن يثور

ضد الظلم ، وما من شك لو ان الثورة انتصرت انذاك لتغيرت رواية التاريخ ، وسيرته بما يتناسب مع الانتصار .

حين تم اقتحام البصرة ٣٥٧ هـ قام الاعراب بدور اساسي ، ومن ثم قاتل اهل البصرة في صفوف الثوار ، وهم عرب .

المناطق التي سيطرت عليها ثورة علي بن محمد كانت :

البحرين ، البصرة ، القادسية ، واسط ، جنبلاء ، النعمانية ، المنصورية ، جبل ، البطيحة ، المزار ، واغلب سواد العراق . الابله ، الاهواز ، باذاورد ، جرجرايا ، رامهرمز ، تستر ، خوزستان ، عبادان.

وهكذا نرى ان هذه المناطق هي مناطق عربية ، نسبا ، وثمة اخرون ليسوا عربا في النسب ، انضموا الى الثورة ، لتشابه اوضاعهم المادية ، الرثة ، ولشمولهم جميعا بالظلم الذي عم العباد .

ان النضال ضد الظلم والاستغلال انذاك كان نضالا طبقيا ، عربيا ، في آن واحد ، ليس لان المقاتلون كانوا قد قرؤوا كتب الماركسية ، بل لان طبيعة النضال يمكن الان تصنيفها في هذه الخانة ، ولو عدنا الى المفردات التي كانوا يستخدمونها للتعبير عن ضيقهم ، او عن افكارهم لوجدناها الفاظ ذلك الزمن ولكنها مشحونة بالتعبير عن الضيق ، والرفض ، والثورة ، بمعاني هذا الكلام ، ودلالاته .

لقد كان النضال كما قلنا طبقيا ، عربيا ، في آن واحد ، وهو ما احتفظ بملمحه ، ضمن حدود الانتماء ، والايحاء في سورية خاصة ، حيث كان النضال ضد الاقطاع طبقيا عربيا ايضا ، لان الاستغلال بصورة عامة لا يمكن ان ينسجم مع روح الدعوة القومية الاشتراكية

لتضارب مصالح الاقطاعيين ، والراسماليين ، والعشائريين ، والطائفيين مع الدعوة لاقامة المجتمع العربي الاشتراكي الحر الموحد .

الظلم ، والفقر ، والقهر كان يصيب الجميع ، عربا ، وغير عرب ، ولذا فقد انضموا للثورة لانها تجسد مطامحهم في الخروج من اسار الجوع والاذلال .

ترى هل فكر (الزنج) ، كزنج ، باقامة دولة زنجية لهم في وطن هم بعض مواطنيه ، غير انهم المواطنون الاكثر بؤسا ، ومرارة ، وعنتا . ؟

ان الدعوة التي انضم اليها الزنج كانت تمثل الامل في التحرر مما يعانون منه هم ، ومن شاكلهم من مواطنين تحولوا الى عبيد يعملون في ظروف بالغة القسوة ، فانثالوا جميعا لتلبية نداء علي بن محمد للخلاص من جهنم الحياة ، وفي يقيني ان تسمية الثورة بثورة الزنج كانت مقصودة من قبل دهاقنة السلطة ومؤرخيها ، ليوحوا بذلك انها ثورة غير عربية ، ولإلصاق مزيد من التهم ، واثارة غبار الشك للنيل من تلك الثورة .

ان ثورة يقودها من يقول ، او من يدعي ، انه من نسب (الامام) علي ، تحشد تلك الطاقات الشعبية لتقاتل ضد التسلط التركي ، وضد الاستغلال الذي بلغ حدا لا يحتمل ، ثورة كهذه هي ثورة عربية ، اسلامية ، طبقية ، في المبدأ ، والانتماء ، وكل قول آخر ليس اكثر من تجديف وانجرار الى مواقع نفسية خلفها الارث الاعمى والموقع الطبقي الذي يدافع عن نفسه بأسلحة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب .

ثمة نقطة لابد من الانتباه اليها وهي : لنفترض ان الحكام العباسيين لم يكونوا خاضعين لطغيان السيطرة التركية انذاك ، وكان نفس الظلم واقعا على الشعب ، او لم يكن مقدرا لتلك الثورة ، وربما لغيرها ان تقوم ؟

ان الصراع لا يلغيه ان يكون الظلم واقعا من هذه الجهة او من تلك، والمظلومون الفقراء يجمعهم انهم جميعا في خانة الرثاثة ، والسحق ، والقهر ، غير ان تلك الثورة ، بحكم الظروف التي ذكرناها ، كانت ضد الاستغلال والظلم عامة ، وضد الهيمنة التركية ، لا لانها غير عربية فقط ، بل لانها غير عربية وظالمة ، وبهذا المعنى يصبح الانتماء للثورة هو الهوية النضالية الحقيقية لاولئك المقاتلين دون النظر في اصولهم ، لان الدولة التي طمحوا في بنائها ، والتي بنوا نموذجا لها على امتداد عشرين سنة كانت اسلامية ، عربية ، لا زنجية ، خاصة اذا اخذنا المبدأ الذي اعتمدت عليه الثورة ، وهوما نسميه اليوم الفهم الطبقي للرسالة ، اضافة الى كون العناصر التي قاتلت في صف الثورة : عربية ، وغير عربية ، ولكنها كانت موحدة الهدف ، ذلك الهدف الذي وجد اماله الخلاصية في فهم الرسالة التي حملها محمد بن عبد الله (ص) فهما ينسجم مع ما وعاه بعض المسلمين الاوائل ، وتجسد فيما مثله ابو ذر الغفاري من تلك المدرسة المحمدية الكبرى .

الحس الطبقي الانساني في تلك الثورة :

تتجلى قيمة تلك الثورة في انها كانت ثورة عربية ، ـ بالمعنى الذي اشرنا اليه ـ طبقية ، انسانية .

عروبتها ، ذكرنا من اين جاءتها ، وكيف حملتها .

وطبقتها جاءت من انها قاتلت بالفقراء دفاعا عن مصالح هؤلاء الفقراء وحملت مبادىء الثورة التي ظلم من اجلها آل ياسر ، وضرب ونفي في سبيلها ابو ذر الغفاري ، لست اعني انهم صرحوا بهذه الاسماء كما نتداولها اليوم .

الاخوة في هذا المجال هي اخوة المبدأ ، فقد كان جوهر المبدأ الذي قامت عليه معظم تلك الانتفاضات والثورات جوهرا واحدا ، وهو نفسه

الجوهر الماثل في كل صغيرة وكبيرة من تلك الصدامات التي اتخذت شكل مقاومة علنية في بداية الدعوة ، ثم تطورت الى حرب ، حتى اذا حنى كبار وتجار قريش رؤوسهم للسيف المنتصر ، آثروا الانحناء للعاصفة ، وامتشقوا رؤوسهم وسيوفهم في اول فرصة اتيحت لهم فيما بعد .

في احدى التمردات الشعبية التي قامت في بغداد ضد هيمنة الاتراك وتسلطهم اقتحم الجنود سجن العاصمة واطلقوا سراح المساجين فيها .

هل نحاول ان نتصور من يملأ السجون حين لا اللقمة ، ولا الكرامة ؟

سياسيون مناوئون .

فقراء اضطرتهم ظروف الحياة للسرقة ، او للاحتيال للحصول على ما يقيم الحياة ، فقد ازدهرت (الشطارة) و (العيارة) ، و (الكدية)، في مثل تلك الظروف المشار اليها ليس من المعقول ان يعبر تمرد شعبي عن نفسه باطلاق سراح القتلة والمجرمين ، بالرغم من حتمية وجود بعضهم في السجن ، ولا شك في ان الشعب الذي انتفض كان يعرف انه يكيد للسلطة حين يطلق اعداءها من ظلمات السجون ، حتى حين يكونون مجرمين .

اتجه علي بن محمد بعد سبع سنوات للزنج ، اي بعد ان تأسست قواعده وقواه بين القبائل العربية ، وما من جدال في ان قائد هذه الثورة كان مطلعا بدقة على الحالة التي عليها المجتمع الذي تصدى لقلب الاسس العلاقاتية القائم عليها ، واسوأ تلك الظروف حيث كان يعمل الزنج والعرب في جنوبي العراق خاصة ، فقد كانوا يواجهون ظلما وقهرا عنيفين ، مريرين ، لا يكاد يشبهه سوى ما عاناه زنوج

افريقيا على ايـدي الغزاة الامريكيين ، وبـذلك الحس ، الانسـاني ، الطبقي ، العادل ، الحاد ، توجه علي بن محمد بحدس ووعي كبيرين ، مستندا الى فهم الرسالة بالروح التي سبق ان اشرنا اليها ، توجه الى الايدي المنتجة ، المظلومة ، المقهورة ، التي تقدم كل اسباب البذل ، والرفاه ، (للسادة) ، وتواجه هي الجوع ، والعري ، والاذلال ، وهـو بذلك كان يعلم ان المظلومين الفقراء هم وقود اية ثورة ، في اي زمان .

مـن اهـداف الثـورة :

تحريـر الـرق .

تحويلهـم الى سـادة .

ان يتولوا الرئاسة ويمتلكوا الامـوال .

من هذه الاهداف يمكن استقراء الحالة العامـة التي كان عليهـا الثـوار .

عبيـد مضطهدون ، ولـذا فقد دعى لتحريرهم ، استكمالا للبعـد التطبيقي الذي يخرج من حيز الحفظ الى حيز التجسيد ، البعد الذي الح اليه الرسول (ص) حين قال انهم اخوة في الدين ، وان على البار ان يطعمهم مما يأكل، وان يلبسهم مما يلبس ، وجعل عتق الرقبـة حسنة وكفارة ، غير ان طبيعة العلاقات الاجتماعية الاستغلالية فيما بعـد لـم تحتفظ من كل ما جاء مضادا للعبودية الا بحقهم (السادة) في ان يتملكوا الرقاب ، وان يسخروهـا ، وان يهينوها لدرجـة اخراجها مـن خانـة الانسانية ، وحين دعا علي بن محمد الى تحرير الرق لم يقل بذلك المبدا نقضا للرسالة بل ترجمة للفهم الاكثر انسانية ، الاكثر تقدمية ، فترجـم البعد الروحي ، الانساني ، السامي للاحاديث الواردة في هـذا المجال ، او لبعض التطبيقات التي يمكن اعتبارها خطوة ، ومؤشراً ، لان سـادة يذلون عبـاد الله كل ذلك الاذلال لا سـبيل لمواجهتهم الا بالحق ، الحق

هنا هو مسخر لترف الآخرين ، وهناك تبني به وطنا جديدا وتكون انسانا بجدارة من جديد .

حين انتصرت جيوش الدولة على جيوش الثورة خرج العامة في العاصمة يهتفون بعبارات معادية لبني العباس قائلين :

« رحم الله معاوية وزاد » .

ترى هل كانوا يرون في معاوية انه ارحم وأبر ، على ما عرف به ؟

ترى هل كانوا يرون ان مؤسس (الملك) الاموي حافظ على الشكلية العربية ، وعلى السيادة العربية ؟

ايا كان الامر فقد هتفت الجماهير للامويين اخصام العباسيين التقليديين ، وفي ذلك من الدلالة ما لا يحتاج لمزيد من الايضاح .

لقد شاركت المراة في تلك الثورة مشاركة بارزة ، وفي مشاركتها مؤشرات ايجابية لا يجوز اغفالها ، او المرور بها بشكل عابر ولمعرفة ذلك بشكل ادق لا بد من التذكير بوضع المراة في ذلك المجتمع بصورة عامة ، فقد كانت المراة من حيث وضعها الترتيبي : حرة ، او امة جارية ، ولقد بلغت الاستهانة بكرامة المراة ، من منطلق التملك الشيئي ، ان (الحرائر) ــ حسب التسمية المعروفة ــ كن يضعن على وجوههن خمرا يجعلهن مميزات عن الجواري والاماء .

نساء من كل بقاع تلك الدولة ، او مجموعة الدول ، والامارات المترامية الاطراف ، ومن أراد الوقوف على الصور التفصيلية يستطيع ان يرجع لكتب الادب التي الفت في ذلك الزمن . نساء يملأن قصور السادة ، بحيث كان دور المراة هو انها آلة للتلذذ ، وانها صالحة للأنس فقط ، ولطرد الضجر ، وهنا يجب الا نغفل عن ان الفقر حين يتفشى في مجتمع

فانه لا يصيب الرجال وحدهم ، بل هو يضرب الجميع ضربة واحدة ، ولذا فقد اعطى علي بن محمد المراة دورها وحقها في المشاركة ، ومثل هذا لا يستغرب من قائد يقود ثورة طبقية ضد جلادي الشعب ، لان من يتصدى لحمل امانة الثورة لا يسوغ له أن يغفل عن دور نصف المجتمع ، لا من الناحية العددية فقط ، بل ومن ناحية اعتبار الكرامة البشرية ، اضافة الى كل ما سبق .

ليس وعيا مبكرا فحسب ، بل هو حس صادق مقرون بوعي كبير ، وبجدارة في القيادة ، وبفهم ما يمتلكه العنصر البشري من طاقات هائلة ، وهو في الوقت نفسه رد على الصورة الشائهة التي كانت آنذاك .

استمر حصار جيوش الدولة لعاصمة الثورة من سنة ٢٦٧ هـ ـ ٢٧٠ هـ ، أربع سنوات من الحصار اربع سنوات من القسوة والظروف التي لا تحتمل ، ومع ذلك فقد احتملوها بشجاعة نادرة ، وببسالة خارقة ، لان من عرف حلاوة الحرية والكرامة يفضل الموت على مرارة العودة الى ذلك الامتهان .

اذا سقط احد المدافعين من جند الثور اخلوه وحل محله مقاتل آخر .

كان جنود الدولة يأسرون بعض الثوار ، كما يحدث في اية حرب ، فيسأل الاسير متى عهده بالخبز ؟ فيعجب من ذلك ، ويذكر ان عهده بالخبز منذ سنة او سنتين !!!.

ان رجالا يحاصرون أربع سنوات ، لا يعرفون الخبز منذ اكثر من سنة ، وهم بالتاكيد لا يعرفون (الكاتو) او اللحوم الطازجة ، تضطرهم ظروفهم لاكل الجيف ، ولحم الموتى ، ولا يستسلمون ، ان رجالا كهؤلاء لا يلفت النظر صبرهم ، وجلدهم فقط ، بل لا بد من تذكر الدوافع التي

تجعلهم يصمدون مثل هـذا الصمود الاسطوري ، وهي دوافع الايمان النادر بالمبادىء التي قامت عليها الثورة ، ودوافع الرفض العنيف للعودة الى الوضع الاجتماعي الذي كانوا عليه من قبل ، حتى وان اكلوا الجيف ، او ماتوا من الجوع .

ان المشقة التي احتملوها في زمن الثورة لدليل على ان العذابات التي كانوا يواجهونها على ايدي مالكيهم هي عذابات يهون الموت بمقارنته بها ، خاصة حين يخرج الانسـان من جهنم الاذلال والانهـاك الى نعيم العزة البشرية المصانة ، فليس ثمة سوى خيار واحد : النصر ، او الاستشـهاد العـزيز .

لقد اتهمت القوى المضادة للثورة ثورة علي بن محمد بأنها تشبه (المزدكية) ، ويبدو أن ما كان معمما عن المزدكية لدى الناس ، وهو تعميم مدروس من قبل السلطة ، بكافة ادواتها واجهزتها ، المعمم كان انها ثورة اباحت ما هو محرم ، ولعل الشبه الاساسي ، الدافع ، بين الثورتين هو في النظرة الاقتصادية للبناء الاجتماعي .

تعلن المزدكية : الاشتراك العمومي في الثروة والمال بين الجميع .

((مزدك حرم عليهم ، ـ يعني اتباعه ـ العداوة ، والبغض ، والنزاع ، ودعاهم الى المساواة ، وكان يقول ان اصل البغض والاختلاف بين الناس هو التفاوت في الدرجات الاجتماعية .

ومن أفكار مزدك :

((الموجود الأعلى وهب الناس جميع وسائل الحيـاة بسخاء لكي يقتسموها بالقسط حتى لا يكون لأحد اكثر من غيره ، لأن عدم المساواة هو نتيجة الاغتصاب ، وما الاغتصاب الا محاولة بعض النـاس ارضاء شهواتهم على حساب غيرهم .))

وتقــول :

« .... عند اختلال القاعدة يجب ان يؤخذ من الغني المقتصب ما يزيد على حاجته ويعطى المحتاجين ليعود الناس الى المساواة الاصلية » .

كل هذه المشابهات ، التي تلتقي في أصولها لم يكن ليراها الناعقون ، ثمة شيء واحد رأوه هو اتهام ثورة علي بن محمد بجعل الحرام حلالا ، تقولا ، واتهاما باطلا .

لقد ظلت اشاعة روح المساواة ، وتذويب الفوارق الطبقية هدفا ذهب الكثيرون ضحايا من أجل الوصول اليه ، في ثورة علي بن محمد ، كما في ثورة القرامطة ، فيما بعد ، تلك الثورة التي قامت عام ٢٨٤ هـ ، وبدأت من نفس المنطقة العربية التي بدأ فيها ثورته (صاحب الزنج) .

لقد كانت ثورة علي بن محمد ثورة طبقية ، تجاوبت معها عواطف الشعب ، الشعب الذي وزع رقاعا (منشورات) يدعو فيها : « ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضي » ، وكان الخليفة المقصود بهـذا الكلام : المهتدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦) هـ ، اذ حاول ان يتصدى للافساد التركي، الحكومي ، فاخذه الاتراك وعذبوه ، فكان تجاوب الشعب الدعاء له ، لانه لم يكن يملك غير الدعاء .

اذا دققنا في كلمتي : (العدل ، الرضى) ، ندرك المطالب التي كان يفصح عنها الشعب : (العدل) في مقابل الظلم والطغيان .

تضاد في كل شيء .

هنا الثورة ، وهناك السكونية الجامدة .

هنا الدعوة لالغاء التفاوت الطبقي وتحرير الناس ، وهناك الاستغلال والاسترقاق .

هنا البياض وهناك السواد ، بدلالاته المعنوية ، لا اللونية .

راية الثوار بيضاء ، وراية طغاة ذلك العصر سوداء .

راية الثوار بيضاء كتبوا عليها بالاحمر والاخضر : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله » ، وكان الابيض شعار غالبية من ثار ضد العباسيين ، وكانهم يعلنون بذلك ان الصراع بين النور والظلام الابدي ، بين الشعب والطغاة .

* * *

ان تسليط الضوء على الثورات التقدمية ، اعني التي نسميها الآن تقدمية ، من خلال معرفتنا بالطروح التي قدمتها ، والاهداف التي قاتلت من اجلها ، قلت تسليط الضوء لا يجلو تلك الثورات مما علق بها فقط ، بل هو يكشف عن الجذر الفكري ، الطبقي الذي رانه تلك الثورات في الاسلام ، ليس لاننا معنيون بهذا الامر كعرب حملوا رسالة الاسلام ، بل هو اضافة الى ذلك يكشف عن السبق الذي كان لتلك الثورات في الطرح ، وفي المواجهة ، وفي يقيني لو ان كارل ماركس اطلع على التجربة التي قادها علي بن محمد ، وجاءت من بعدها ثورة القرامطة ، لو اطلع على ذلك لكان له راي هام فيه .

ان تجربة علي بن محمد ، وثورة القرامطة ، والحركات الاشتراكية الاخرى تطرح على ساحة البحث اكثر من تساؤل ، وفي التقييم الماركسي بالذات ، لأن قيام دولة تمحي فيها الفوارق الطبقية ، ولا يملك في احداها المواطن الا سيفه وحصانه ، وتأخذ من كل بحسب طاقته ، وتعطي كلا حسب حاجته ، مثل هـذا الامر يحتاج لمزيد من الدراسة والتفسير ، خاصة وان التشكيلة الاجتماعية التي كانت آنذاك هي تشكيلة رعوية ، شبه اقطاعية ، في آن واحد .

اننا لا نعود الى تلك الثورات الا لترسيخ مبادىء النضال الاشتراكي ، والذي هو قومي حكما في الدولة العربيــة الواحــدة ، المنشودة ، لان الاشتراكية التي نناضل من اجلها لن تبلغ كمالهـا كتحقيق ، وكمعطى اقتصادي الا بالوحدة القومية ، دون أن يعني هذا ايقاف ما يمكن تطبيقه، دون أن يعني ان التنفيذ معلق على الوحدة ، بل الاشتراكية ، قطريا ، تأسيس لما هو اشتراكي ، ولما هو قومي في آن واحد .

اننا حين نعود لتلك الثورات فلكي نشحن الطاقات كلها عبر امتدادها الزمني ، ذلك الامتداد الذي ما زال له حضوره في عملية تواصل الازمنة التاريخية ، وفي عملية التواشج المتعددة .

ان ما حظيت به ثورة اسبارتاكوس هو اضعاف ما عرف عن ثورة علي بن محمد ، وما كتب عن كومونة باريس اضعاف ما نشر عن القرامطة، بالرغم من العمق والغنى المتوفرين في ثورة الزنج وفي ثورة القرامطة ، واللذين لا نجد مثيلهما لا في ثورة العبيد ، ولا في الكومونة ، من الناحيتين الزمنية (كسبق) والتطبيقية .

الثقافة في مجابهة الاحتلال

عبدالرحمن حمادي

اية ثقافة لدينا ولأية ثقافة نطمح ؟!

اكاد اشفق على جيلنا ، نحن الشباب المعاصر في هذه الأمة العربية ، من قدرنا في ان تكون بهذه الحقبة من الزمن ، واقول (اكاد) لان جيلنا بالذات قدر له ان ينشأ والنكسات تتوالى عليه ، فمن نكسة الى نكسة ، حتى لتصح تسميتنا بجيل النكسات .

واقول (اكاد) لاني ارى ان جيلنا مع ذلك شهد اضاءات في زمنه هذا ، اضاءات ساهم في اشعالها وجعل من شراراتها وقودا مشجعا له على أن يشعل اضاءات اخرى ، راغبا كل الرغبة في ان يمحي عن نفسه صفة (جيل النكسات) ، ساعيا بصدق ان يأتي الجيل القادم بعده فلا يرى ما رأيناه من نكسات .

ولو شئت الحق ، فأنا لا أعرف كيف أصف الاضاءات والنكسات وانا الذي عايشها واحــدا من ابناء جيلي ، لهــذا احتار بأيهما أبدأ : بالاضاءات أم بالنكسات ، بالنكسات ثم بالاضاءات ، أم بكليهما معا ؟!

الم اقــل انه ضياع جيلي بــين هذين القطبين ، اعني الاضاءات والنكسات !! لقد وعى جيلي زمنه بالاضاءة ، فما ان بدانا تفتحنا ، الا وكانت راية الوحدة العربية بين مصر وسوريــة تعطي حماسا وانفعالا لآبائنا ، وتفاؤلا بحياة جديدة آتيــة ، لكننا ما لبثنا أن سمعنا بنكسة اسمها « الانفصال » مترافقة ببكاء رجالنا ومظاهراتهم ، وبدموع امهاتنا وهن يرين آباءنا يقادون للسجون .

وكان الانفصال نكسة بعد اضاءة لم تشع طويلا .

ومضى جيلنا سنوات قليلة ليشهد ثانية نكسة جديدة اسمها «هزيمة حزيران » ، ومن يومهــا ترسخ في اذهاننا أن ثمة وحش كبــير اسمه « اسرائيل » احتل بلدا عربيا اسمه فلسطــين ، وهزم جميع العرب ، وسيبقى يهزمهم لأبد الآبدين !!

كانت هزيمة حزيران هي النكسة الثانية التي شهدها جيلنا ، وكان تساؤلنا الدائم : لماذا لا يتحد العرب كي يهزموا هذا الوحش ؟! ومنذ ذاك الوقت بدأنا نشك بصحة ما ترويه لنا كتب مدارسنا وهي تخبرنا أن العرب كانوا اصلا امة واحدة قوية هزمت الرومان والفرس والصليبيين والاتراك والتتار والمغول و .. و .. ، وان امتنا نشرت حضارة رائعــة على العالم كله .

لم نصدق كل هذا ، فنحن نشأنا وكنا شهود نكستين ، ولنا عذرنا يومها أن لا نصدق .

ومضى الزمن قليلا .. سمعنا بالثورة ، والثورة اضاءة ، سمعنا بانتشار الاشتراكية ولمسناها ، وهي اضاءة ، وشاركنا في الاضاءة الفاعلة في زمن جيلنا ، اعني حرب تشرين ، وهي اضاءة ، وهكذا حتى بتنا نكاد ننسى النكسات .

ولكن كان لابد للنكسات ان تعود ، فرأينا حرب لبنان الاهليـة ، وتلك نكسة ، ورأينا مالم نصدقه في البدء ، أعني اتفاقية « السلام ! » بين أقوى دولة عربية وهي مصر ، وبين ينبوع النكسات العربية المسماة بـ « اسرائيل » ، حتى جاءت النكسة الاخيرة عندما احتل الصهاينة لبنان تحت سمع العرب وصمتهم ، الى مجازر مخيمات الفسلطينين في صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة ، وهذه كلها نكسات ..!!

من اية ثقافة نبدأ ؟!

أأكون قد بدأت بداية ادبية تقليدية ؟!

ليكن ، فأنا مازدت ان طرحت بديهيات يعرفها الجميع ، ولكن هذه البديهيات هي التي فعلت فعلتها ولاتزال في تفكير جيلنا وثقافته، وتؤثر في قراءاته وسلوكه ، وستبقى تؤثر فيه وفي الجيل الذي يليه ، وربما الذي يليه مالم نمح النكسات ونزيد من الاضاءات ، وهاهو ذا جيلنا يجد نفسه مرة اخرى امام النكسات ، بل امام أفظع النكسات مجابهة لواقع فرض فيه الغزاة الصهاينة احتلالهم لعدة اقطار عربية ، ولا حد نهائي لاحتلالهم واطماعهم بعد احتلال لبنان ، الى آخر ما هنالك من

واقع سياسي مؤلم يعيشه العرب ، لا اخوض في تفاصيله لاني لو فعلت كنت اكرر آهة يطلقها الجميع كل يوم .

من هذه النكسات كلها ، اية ثقافة نملك ، واية ثقافة نحن بحاجة اليها الآن لنجابه واقع الاحتلال الذي فرضه عدونا علينا ؟! ولتكن صيغة السؤال الثاني كما يلي : اية ثقافة يجب ان نتسلح بها ونمارسها لنجابه عدونا الذي احتل اراضينا العربية ويقينا انه ينوي احتلال المزيد منها ؟!

لنتفق في البداية ان لا فاصل في الواقع بين الثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، والثقافة التي نريدها ونعنيها ليست محصورة في هذا النوع الابداعي او ذاك ، بل هي الكل الذي يتناول ماضينا ، واجزاء حياتنا العامة والخاصة ، وكل ماله صلة بمعيشتنا الحاضرة ورؤيتنا المستقبلية ، ولا اطلب هنا التطرف ، فهي الثقافة التي يمارسها عدونا ويحاربنا بها .

من الغزو الاخير :

لابرهن على هذه المقولة ، اسوق هذا المثال القريب :

قبل ايام من الغزو الصهيوني للبنان ، انتشرت في بيروت والمناطق اللبنانية نوادر وطرائف اخذ يتناقلها الناس عن بدائية تصرفات افراد قوات الردع العربية ، حملت في مجملها هجوما على العروبة وتمجيدا للغرب !! من هذه الطرف كمثال ان عسكريا يقوم بنوبته على احد الحواجز اتهم سيدة بسرقة محرك سيارة لانه عندما فتح صندوق السيارة الخلفي وجد به محركا يدور وينفث الدخان ، فقال : « وتسرقين ياسيدة محركا

وهو يدور » واحتاج الامر لكثير من الشرح حتى يقتنع العسكري بأن هذه العربة من النوع الذي محركها يكون في الخلف ، وليس في المقدمة»!!

ان هذه النوادر التي انتشرت عن جهل العربي لانواع السيارات ومثيلاتها ، الغريب فيها انها لم تتناول الجنود السوريين الذين كانوا يؤلفون عماد قوات الردع العربية في لبنان آنذاك ، بل اخذت تتناول العرب الكويتيين والسعوديين وغيرهم ممن كانوا في قوات الردع عند بداية تشكيلها !! ان تمحيصا بسيطا لهذه الطرف والنوادر على العرب ، وتوقيت انتشارها بشكل مفاجيء قبل الغزو بأيام قليلة يعطي الدليل على مصدرها الصهيوني ، وكان الصهاينة مهدوا لغزوهم العسكري بغزو فكري ، ويصح ذلك اذا ذكرت مثالا انني سمعت بعضا من ضعاف النفوس في بيروت ممن تناقلوا هذه النوادر يقولون بأنهم لا يمانعون خروج العرب من بلادهم ، وان تأتيهم « اسرائيل » بحضارتها الغربية ، وضربوا مثلا بالتقدم والحضارة والرفاهية التي يعيشها الشريط اليهودي المحتل في جنوب لبنان !!

ومع اننا نجزم الآن بأن اولئك عرفوا اية حضارة وحشية جاءتهم بها المسماة « اسرائيل » ، فاننا نتساءل لماذا كان للصهاينة سلاحهم الذي يستطيعون مهاجمتنا من خلاله ، وهو عدم تلاؤمنا مع الحضارة الحديثة واستمرارنا في التخلف الحضاري ؟!

من هنا كانت اشارتي في البداية الى « عمومية الثقافة » ، فنحن أكثر ما نكون بحاجة الى ثقافة تتناول سلوكنا العام منذ البداية ، ثقافة تعلمنا كيف نقف أمام المؤسسات العامة بنظام ، وكيف نصعد للحافلات ، وكيف يعطي المواطن جهده كاملا للوطن وكيف ..؟!

ولعمري لو عددت هنا مثالبنا في سلوكنا العام بوطننا ، بحياتنــا اليومية ، بلحظاتنا ، لاحتجت الى صفحات وصفحات ، وعزائي انني لا اعددها ، ان كل واحد منا يمارسها ويتهم الآخرين بها . ولا يهمنــي ان يقال بأن الوطن هنا على خطأ والمواطن هو الضحية ، فهو ــ اي الوطن ــ لم يعط للمواطن شعورا بالامان ، مما يدفعه الى تلك الممارسات دفعا ؛ اقول لا يهمني ، بل يهمني ان هذا الذي نراه سلاح بوجهه عدونا الينا ، والحاجة ملحة الى ثقافة تبدأ بتغيير سلوكيتنا الفوضوية هــــذه .

فمن اين تبدأ تلك الثقافة ؟! تبدأ منا ، من اطفالنا ، من مناهجهم الدراسية ، من وسائل الاعلام ، من . . . ؟! ايضا السؤال لا يهم بقدر ما يهم ان نوجد تلك الثقافة ، وهي ان اثرت فينا تكون واحدة من الحراب التي نرد بها على حراب عدونا المحتل ، ويكون الرد المؤثر فيه .

تناقضات :

واعود الى مقولة النكسات والاضاءات التي عاشها جيلنا ، والنتيجة ان ثمة ثقافة متناقضة عاشها جيلنا ولايزال يعيشها ، ثقافة تأتي كتيار يصاحب تلك النكسة او يرافق تلك الاضاءة ، فنحن طورا مع شتائم نزار قباني الحزيرانية ، وتارة مع قصص الانتصار المبنية من المقاهي، ومن وراء الطاولات ، ومع تجارب الشعر الفوضوية ، كقصيدة محمود درويش ومعين بسيسو المشتركة ، حتى اننا في هذا الضياع بين النكسات والاضاءات بتنا نتقبل اية قصيدة او اي ابداع ، جاء شكله ما جاء ،

بكائيا ام متفائلا ، لاننا في الحقيقة بين البكاء والتفاؤل بين بين ، والمؤسف اكثر أن هذه الثقافة لم تكن موضوعية ابدا ، لافي بكائياتها ولافي تمجيدها، ففي النكسات تبالغ هذه الثقافة في تصوير مثالبنا وشتمنا والتهجم على وجودنا حتى ، وفي التفاؤل سرعان ما تنسى اننا بشر ، فتبدأ بتصويرنا بالقوم الخارقين السوبرمانيين ، واننا متجردون عن كل شيء الا البطولة والقتال ، مع اننا عندما اضطلعنا على ثقافة عدونا وادبه ، وجدناه موضوعيا عن ذكاء ، قد يبالغ ، ولكن لم يصل لمبالغتنا !!

اذن ، هل نحن بحاجة لثقافة مثل هذه الثقافة ، اعني الثقافة الموضوعية التي تقول الحقيقة كما هي ، فتعطينا الاضاءة كما هي ، وتعطينا الاساءة كما هي ؟! نعم اننا بحاجة اليها ولا اكثر .

والسؤال مرة اخرى : من اين تأتي تلك الثقافة ؟!

اننا ندخل هنا في أزمة المعاناة السياسية ، اذ ان الثقافة العربية في معظم اقطارها تضطر اضطرارا للانحراف عن مسارها السليم « مراءاة او مراءاة ، تمذهبا أو تعصبا ، وانسياقا في ركاب السياسة التي يفترض أن ينظر اليها ثقافيا ، لا أن ينظر للثقافة سياسيا » .

هذا هو واقع الثقافة العربية ، لذا فان الصراع من اجل ايجاد ثقافة قوية تجابه المرحلة الصعبة التي تعيشها الامة العربية في مواجهة الاحتلال سيكون صراعا قويا ، يبدأ بربط الثقافة بسائر مكونات الكيان الاجتماعي والسياسي مكانيا وزمانيا وتاريخيا وبنيويا ، « فالثقافي في المجتمع يبقى رغم تميزه قسما مما سماه الماركسيون البناء الفوقي ، ويبقى مشروطا بشروط البنى التحتية » .

ثقافة أم ثقافات ؟!

.. الثقافة العربية في مواجهة الاحتلال ..!!

في البدء لنكن صريحين ، هل هناك ثقافة عربية معاصرة بالمفهوم الذي نستقرئه من لفظة « الثقافة العربية » ؟! أم أن الامر ما هو الا مصطلح عمومي لا نستطيع تطبيقه على أرض الواقع ؟!

اننا في الحقيقة لا نستطيع أن نتناغم مع مصطلح « الثقافة العربية »، لان واقع هذه الثقافة يقول بأن ثمة ثقافات عربية ، لا ثقافة واحدة ، فمن جهة نجد ثقافة السلطة السائدة التي هي ثقافة السلطات العربية، والتي هي من جهة اخرى ثقافة البرجوازية العربية على مختلف تشكيلاتها وامتداداتها الاقليمية والقومية ، مما يستتبع عدم وجود رؤيا موحدة لسؤال ماهي الثقافة التي نريدها لنواجه الاحتلال ، ناهيك عن روح الخرافة والغيبية التي تغلف هذه الثقافة لتميل بها نحو الاستسلام اكثر من ميلها الى المنحى التحريري ، وما علينا في هذا المجال الا ان نستقريء الفكر الشعبي في أية منطقة عربية لنجد مصداق ما أقول ، ولنجد ان الفكر الثقافي هنا فكر خرافي أسطوري تبريري ، موجه ضد العلم ، وبالتالي يساهم في تخدير الروح العربية ، ويمهد للنشوب عليها وترويضها .

بين يدي الآن صحيفة عربية واسعة الانتشار تصدر في احد الاقطار العربية ، دأبت على تغطية اخبار الغزو الصهيوني للبنان والمقاومة البطولية للقوات السورية والمشتركة لهذا الغزو ، واكاد امتليء بالدهشة وأنا أقرأ ما أورده مراسلها في بيروت اذ قال : « .. ان عددا كبيرا من المقاتلين الفلسطينيين اكدوا بأنهم يرون كل يوم الانبياء تقاتل معهم»

ولبرهة اعتقدت ان الجريدة تقصد التعبير المجازي ، لولا انني تأكدت من المعنى الخرافي الغيبي اذ سرعان ما يقول المراسل : « والتقيت مع شيخ في السبعين من عمره كان يحمل بندقيته وهو يصرخ في المقاتلين : قاتلوا ، فانني ارى الأنبياء تقاتل معنا » !!

ولا أرى اي تعليق اضيفه على ما قالته الجريدة في محاولتها الغيبة هذه . اسئلة اطرحها على بساط ثقافتنا العربية في ظرف نحن بحاجة لهذه الثقافة سلاحا نجابه به عدونا النازي الصهيوني الذي لا تقف اطماعه باحتلال اراضينا العربية عند حد .

مطالعات

الكاتب الاميركي الأسود

مفيد نجم

مايزال الاهتمام بالادب الاسود عموما وبالادب الامريكي الاسود محدودا وفي الوقت الذي نعرف فيه الكثير عن الشعراء والكتاب الامريكيين منذ الثلاثينات وحتى الآن ، لا نعرف الا القليل والقليل جدا عن الادب الامريكي الاسود والكاتب الامريكي الاسود الوحيد الذي عرفناه جيدا هو صاحب رواية الجذور التي قدمت مسلسلا على الشاشة الصغيرة .. والسبب في ذلك يعود غالبا الى ان دور النشر الخاصة تبحث في الاساس عن الربح ولهذا تعمد الى نشر ترجمات عن الادباء العالميين البارزين وخاصة الغربيين منهم لان القارىء لا يعرف الا هذه الاسماء الهامة للادباء والكتاب والشعراء الغربيين في الغالب . وفي محاولة لتجاوز هذه الحالة المؤسفة يأتي كتاب /الكاتب الامريكي الاسود/ الذي صدر بمجلديه الاثنين عن منشورات وزارة الثقافة وقد قام الدكتور هاني الراهب بترجمة الكتاب الذي قام بتحريره الكاتب الامريكي الاسود كريستوفر بيغزبي .

يتألف الكتاب من مجلدين اثنين وقد خصص المجلد الاول للقصص في حين خصص المجلد الثاني للشعر والمسرح ويحاول الكتاب التعريف ببدايات الكتابة السوداء في امريكا وعلاقتها بالوضع الذي يعيشه الامريكي الاسود في ظل سياسة التمييز العنصرية التي تمارسها المؤسسات الرسمية وتضغط من خلالها على الرجل الاسود لتحصره في دائرة ضيقة جدا يصعب عليه معها ان يخرج صوته ويوصله الى الآخرين لنقل معاناته القاسية واحساساته ومشاعره الانسانية المحتقرة في واقع يستلبه ويذله وفوق كل هذا يحاربه بكل شيء .

والكتاب بمجلديه عبارة عن مجموعة من الدراسات النقدية وبعض المقابلات التي يتعرض النقاد من خلالها الى مناقشة وضع الكتابة السوداء في جميع المجالات ، والموقف النقدي الذي وقفه النقاد البيض من هذا الادب . تتطرق الابحاث بعدها الى مناقشة الموقف النقدي الذي اتخذه النقاد الزنوج انفسهم وماذا وجدوا في أدب اخوانهم ثم تناقش نماذج من الاعمال القصصية والروائية اضافة الى الاعمال الشعرية والمسرحية الهامة التي شكلت علامات فارقة ونقاط تحول اساسية في الادب الامريكي الاسود مستعينة بعرض مقاطع منها ، تمثل تمثل شواهد على ما يحمله العمل الادبي من قيمة واهمية متميزتين .

● المجلد الاول : القصص :

تشكل المقدمة النقدية التي كتبها المحرر بيغربي بانوراما غنية التعريف بوضع الكتابة والوعي الزنجيين في امريكا . وقد حاول الكاتب من خلالها ان يعرف بتاريخ الكتابة السوداء والمراحل التي مرت بها وعلاقة كل ذلك بتنامي وعي الكاتب الزنجي وقدرته على اختراق دائرة التعتيم والاهمال الذي واجهه في واقع تحلمه علاقات التمييز العنصري. ويرى الكاتب ان الزخم الاول للكتابة السوداء قد جاء مع بدايات

القرن العشرين تحت تأثير الكتاب البيض امثال كارل فان فتشن في الرواية وردجلي تورنس واميل هابغود في المسرح ، وكان الشعر هو الميدان الوحيد الذي استطاع فيه الكتاب الزنوج المنتمون الى ما يسمى بـ « النهضة الزنجية » ان يقدموا شيئا اصيلا معبرا عن روح الزنجي ووعيه الخاصين . ويصحح الكاتب تاريخ الرواية السوداء فيعلن (لانه على الرغم من وجود الرواية الزنجية عام ١٩٤٠ وحتى هذا كان ظهورا ناقصا ، واذا كان هذا الحكم قاسيا فهو ضروري كتصحيح لذلك الشكل الخاص من الابوة الذي يفصح عن ذاته في تعليق الحكم النقدي) . ص ٩ .

ويتابع الكاتب مبنيا مرحلة التحول الاساسي التي شهدتها الكتابة السوداء التي جاءت بنتجة (التحام صور العشرينات الرومانتيكية بالاساطير القوية للوعي القومي الاسود) . حيث استطاعت عملية الالتحام هذه ان تشكل سيرورة الكتابة السوداء في قرننا الراهن . لكن اهم ما يتعرض الكاتب الى مناقشته هو علاقة الادب الامريكي الاسود بأفريقيا ، وصورة الارتباط التي كانت تربطه بها وتشده اليها فيؤكد ان الادب الاسود كان يؤكد باستمرار على صورة أفريقيا الرومانتيكية الا ان النهضة الزنجية التي بدات تتكون في العشرينات (جددت فراقا جذريا عن المقاييس والقيم التي اعتنقها كاتب الطبقة المتوسطة الزنجي في الماضي) ص ١٥ . وقد عبرت هذه الحركة الجديدة في الادب الامريكي الاسود عن نفسها في فلسفة (اتباع غارفي) القائمة على الدعوة الى العودة الى افريقيا . اما بالنسبة لمفهوم « الزنوجة » في الادب الزنجي فقد كانت تعني (في المقام الاول توهمات ومشاعر افريقية وتشديدا على العاطفي مقابل خسارة العقلي . على ان نبرة خافتة كان يمكن ان تسمع تحت طابع الغرابة المجلوبة في العشرينات الحافلة هي نبرة الاحتجاج الذي لا يعرف حتى الآن حجم الوعي المرافق له) ص ١٦ .

ان تحديد الكاتب للاسس النفسية والروحية التي كانت تعطي « للزنوجة » صورتها في الادب الامريكي الاسود هو في نفس الوقت تحديد للاساس الذي قام عليه الادب الاسود والوعي الذي كان يمثله في التعبير عن ارتباطه بجذوره واحساسه بالواقع الامريكي الذي يعيش فيه محكوما بعلاقات اجتماعية وثقافية وسياسية تضطهد انسانيته وتضغط عليه بعنف شديد .

ورغم ان المقدمة النقدية المطولة التي يقدمها الكاتب كان يجب ان تخصص لدراسة واقع القصة والرواية ومظاهر تشكلهما ، خاصة وان هذه المجلد قد خصص للقصص الا ان الكاتب تناول من خلاله واقع الكتابة السوداء بشكل عام وكان تركيزه على الشعر اكثر من تركيزه على الرواية والقصة الزنجيتين . كذلك كان يركز على معالجة المظاهر العامة التي طرحتها هذه الكتابة اكثر من تركيزه على معالجة كل فن من داخله فاسحا بذلك للدراسات النقدية التالية ان تقوم بهذا الدور . لكن الكاتب يتوقف طويلا عند قضيتين اساسيتين اولهما علاقة هذه الكتابة بأفريقيا وسبق ان اشرنا لها ، وثانيهما تفاعل هذه الكتابة مع الواقع الامريكي الذي ولدت في احضانه واستجابة لمشاعر واحساسات وافكار جاءت من خلال تجربة الكاتب ومعاناته القاسية في الواقع . ويؤرخ الكاتب لانفصال الكتابة الامريكية الزنجية عن الاستجابة العاطفية العضوية الى افريقيا مع ظهور مجموعة (آني آلن) للشاعرة الزنجية غويندا التي فازت بجائزة بيوليتزر عام ١٩٤٩ (وهكذا فك الارتباط المفترض بين تجربة الزنجي الافريقي والامريكي وبدأ يواجه تحديا . وفي المؤتمر الدولي للكتاب والفنانين السود عام ١٩٥٦ اختار ريتشارد رايت ان ينكر على هذا الارث الافريقي اية فائدة بل واية حقيقة . اما الف اليسون الذي يتذكر كيف اذعرته عاطفة كاونتي كالن في « الارث » فقد اعلن انني اجد صعوبة كبيرة في ربط نفسي بأفريقيا)

وهكذا فك رباط الامومة الذي كان يربط الكاتب الامريكي الاسود بأفريقيا حيث بدا البحث عن ثقافة خاصة يتزايد مع تزايد الوعي الخاص الذي رفض من جهة ارتباطه الرومانسي بافريقيا ، وحاول من جهة اخرى ان يبني ثقافة متميزة خارج (التجربة الامريكية لها رموزها الخاصة ، واساطيرها الخاصة) .

ان هذا التحول الكبير في وعي الكاتب الامريكي الاسود قد جاء يعبر عن نضج التجربة السوداء ووصولها الى درجة باتت هذه التجربة تبحث عن ملامحها الخاصة في مواجهة ثقافة الامريكيين البيض المهيمنة والتي كان اضطهاد الزنوج يتم من خلالها وبها ، الامر الذي يكشف عن موقع الوعي الزنجي الامريكي المتزايد ازاء عمليات الاستلاب الانسانية والثقافية والاجتماعية والسياسية للسود . وقد ادى هذا التحول بالادب الاسود ان ينتقل من الاحتجاج الخافت الى الادانة الواضحة والصريحة للمجتمع الامريكي القائم على التمييز العنصري واضطهاد العنصر الاسود (وطالما ان موضوع العرق يثير اسئلة تتعلق بالاخلاق فهو يجد تعريفه الاوضح في الادب الراهن المتعلق بالزنوج الامريكيين وفي كتاباتهم انفسهم . فعلى العكس من العبد العاصي في قصة ملفل نرى الزنجي طلق اللسان وطلاقته اذ تترجم كأدب قد انتجت ادانة اخلاقية استثنائية لامريكا) ص ٦٨ .

تنقسم فصول الكتاب بعد هذا الاستعراض الشامل لواقع الكتابة السوداء واهم مظاهرها ومراحل تحولها الى قسمين اثنين يتضمن القسم الاول منها دراسات نقدية تشكل وجهة نظر النقاد البيض في الادب الزنجي في حين يتضمن القسم الثاني وجهة نظر النقاد الزنوج انفسهم في القصة والرواية الزنجيتين من خلال دراسة عدد من الاعمال القصصية والروائية لاهم الكتاب الامريكيين السود الذين يشكلون شواهد على تطور الرواية والقصة الزنجيتين والمراحل التي مثلتهما مع تنامي وعي الكاتب الاسود .

المجلد الثاني : الشعر :

يتضمن هذا المجلد كسابقه مقدمة مطولة كتبها الاديب الفرنسي جان بول سارتر حول الاشكال والمفاهيم التي طرحتها الكتابة السوداء بشكل عام ، اضافة الى دراسات نقدية اخرى بعضها يتحدث عن يقظة الادب الامريكي الاسود بصورة عامة ، واهم مانتحدث عنه هذه الدراسة هو بدايات يقظة الكتابة السوداء التي جاءت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والتي اخذ معها العبيد السود بانتاج الادب المكتوب ويمثل الكاتب /جيرالدها سلام/ اول من شق لهذا الادب الزنجي المكتوب طريقه . وتتميز هذه الدراسة عن سابقاتها بالدقة في تحديد مراحل تطور الكتابة السوداء مع ذكر اسماء الكتاب الامريكيين السود الذين بدأوا هذا التحول في التاريخ الادبي الاسود . وتتحدد هذه الدراسة أواخر القرن التاسع عشر كفترة انتقال في الادب الامريكي الافريقي (انتقال كافضل ما يمكن عند دوبوا وواشنطن) . ويشير الكتاب الى أن الشاعر الامريكي الاسود /كلودمك كي/ واحدا من أوائل المعبرين عن روح الزنجي الجديد . وقد ظهرت قصائده الاولى عام ١٩١٧) وقد كان هذا الكاتب قد نال اعترافا وتميزا واضحين كصوت جديد له خصوصية في الادب الزنجي وذلك في مرحلة سابقة على عهد النهضة الزنجية . وكان في قصائده يتحدث عن الوقائع الدموية لسياسة التمييز العنصري التي يمارسها البيض بحق الزنوج الامريكيين والتي كانت احداث عام ١٩١٩ في شيكاغو ابشع صور العنف الدموي التي مارسها البيض ضد السود .

يقول الشاعر /كلودمك كي/ حاضا رفاقه السود على مجابهة هذا العنف الدموي الابيض بنفس الاسلوب الذ يمارس ضدهم :

ان كان يجب أن نموت آ ، فلنمت بنبل
بحيث ان دمنـا الغالي لن يسفح عبثا
وعندئذ حتـى الوحوش التـي نتحدى
سيضطرون لتكريمنـا رغـم موتنـا .

ان دعوة الشاعر لابناء جنسه لمواجهة العنف الابيض وعدم الاستسلام له ، يستند الى تنامي وعي الرجل الاسود ورفضه بالتالي ان يظل دائما الضحية التي تقبل بقدرها دون أن تحرك ساكنا لمواجهته وتحديه ، لان في تحطيم الرجل الاسود لهذه القدرية التي طالما تقبلها ودفع ثمنها دمه وحياته ودم وحياة ابنائه واخوته من حوله ايذانا بتحول الزنجي من ضحية رخيصة ، الى انسان يدافع عن حياته ويموت بشرف وهو يدافع عنها . وهذا ما سيجعل حتى الاعداء يغيرون من نظرتهم السطحية له لان هذا الموقف هو القادر على تأكيد انسانية الرجل الاسود وكرامته .

ويفرد الكتاب قسما خاصا للحديث عن نهضة / هارلم / في الشعر الامريكي الاسود كاشفا عن ان هذه النهضة التي بدات تتشكل في عام /١٩٢٣/ كانت مجرد تقليعة ادبية من التقليعات التي سادت في هذا القرن . ويشير / جير الدمور / في حديثه عن هذه النهضة ان اسوأ مظهر تجلت فيه كان في القصة والمسرح اما بالنسبة للشعر فيرى ان نهضة هارلم تجلت من خلال (عالم اللوعة الحقيقية والرغبة الحقيقية المناضلة لايجاد تعبير في مصطلح بائد ومصنوع في معظم الحالات بصورة مؤسية) .

بعد الحديث عن نهضة هارلم وما شكلته في الشعر الزنجي من سطحية مؤسية ينتقل الكتاب للحديث عن الشعر الزنجي في الستينات والقيمة الخاصة التي استطاع ا ن يحققها من خلال استناده الى حقيقتين موضوعيتين أولهما أن لدى الزنجي الامريكي ما يكتبه عن نفسه وعن ابناء جنسه من الزنوج المضطهدين والمستغلين في مجتمع المصادرة والقمع والاستغلال ، وثانيهما ان لدى الشعراء السود جمهورا يكبر باستمرار ويتمتع بوعي وقدرة على الاستجابة في حين ان الشعر الامريكي الذي يكتبه الشعراء البيض تحول الى مجرد لعبة شكلية لانه يفتقد الى المضمون الحسي والمؤثر الذي يمكن ان يكتب عنه .

ويضيف الكاتب الاسود /بول بريمان/ في بحثه عن وضع الشعر الاسود في الستينات : ان مدينة نيويورك هي اول مدينة شهدت قيام ورشة متضحة المعالم من الشعراء السود وقد استطاعت هذه الورشة ان تجسد النهضة الشعرية السوداء وان تحقق جمهورا واسعا لها يتنامى باضطراد اما في مدينة شيكاغو فقد سيطرت على الحياة الادبية هناك شاعرتان زنجيتان مارغريت باروز وغويندولين بروكس وهي الشاعرة التي حققت انعطافة هامة في تطور الشعر الزنجي الامريكي وبلورة ملامحه الخاصة القوية . ولعل اهم ما يلفت النظر في هذه المرحلة هو بروز عدد كبير من الشاعرات الزنجيات اللواتي (يكتبن شعرا جميلا دون الاعتماد على المجموعات او الاتجاهات الشعرية المحلية السائدة) .

واذا كان الكتاب يبحث بصورة عامة في خصائص الشعر الزنجي الامريكي وملامح تكونه ونموه فانه يفرد جانبا خاصا من الدراسات التي تتحدث عن اهم الاسماء الشعرية في الشعر الامريكي الاسود والتي استطاعت ان تكون معبرة بشكل صادق عن تاريخ الكتابة الشعرية السوداء . ويعتبر /لانغستون هيوز/اهم هذه الاسماء الشعرية واكثرها تعبيرا عن موقع الشعر الزنجي المتقدم خاصة وان هيوز قد عاصربدايات الشعر الزنجي منذ العشرينات وكان دائم التركيز على طرح مشكلة الدم المختلط والاثم الذي تمثله في العرف الاجتماعي الامريكي الرسمي وفي احدى قصائده الاولى /صليب/نراه ينعي الزمن الذي لعن فيه اباه الابيض وامه السوداء كادانة واضحة لقيم الرجل الامريكي الابيض .

شارك هيوز في تدعيم النشاط الادبي الزنجي وفي عام ١٩٢٦ اشترك مع مان وزوانيل واخرين في نشر /نا/ المجلة الفصلية للفنون وكان هو دائم التفاؤل والامل في شعره حيث يرى ان (الجدار المشاد بين الزنجي والحلم الامريكي يمكن ان يحطم « الى الف شعاع من الشمس ») . الى

جانب هيوز هناك ايضا الشاعرة الزنجية غوبندولين بروكس التي مثلت نقطة تحول أساسية في الشعر الزنجي تمثلت في الدعوة الى البحث عن بلورة مفهوم جديد للشعر الزنجي بعيدا عن الجذور الافريقية والصورة الامريكية تعبيرا عن الاستقلالية والخصوصية التي على الشعر الزنجي الامريكي أن يفتش عنها ويمتلكها كهوية خاصة تجعله الصوت العميق المعبر عن وجدان وواقع الزنجي الامريكي الخاص . وقد ركزت بروكس في شعرها على مسألة الهوية العرقية والشخصية للرجل الامريكي الاسود ورغم اهمية التجارب الشعرية التي ابدعتها وشكلت مرحلة تحول جديدة في الشعر الامريكي الاسود الا أنها لم تحاول ان تنشر اية مجموعة خاصة بها وتوقفت عند حدود نشر القصائد المتفرقة لها .

● **المسرح :**

ما يميز الحياة المسرحية للزنجي الامريكي الاسود عن النشاط الادبي والثقافي الاخر هو وجود تقييد اكبر على الكتاب المسرحيين السود الامر الذي جعل ظهورهم متأخرا . وتشير الابحاث التي تضمنها القسم الثاني من مجلد الشعر والمخصص للحديث عن النهضة المسرحية الزنجية الى ان اول مسرحية لكاتب اسود قد ظهرت مكتوبة كان عام /١٨٥٨/ في حين ان اول عمل درامي لكاتب اسود عرض على المسرح كان عام /١٩٢٥/ وتحديدا في مدينة نيويورك . ويوضح الكتاب بدايات النشاط المسرحي الزنجي التي تمثلت بالمسرح الاستعراضي الذي كان يرافقه الغناء الراقص ومشاهد الدعابة السطحية . ويؤرخ / داروين تيرنر / لظهور المسرح الزنجي الناضج بقيام المسرحي الاسود لويس بيترسون بتقديم عمله المسرحي عام ١٩٥٣ في برودواي والتي عرض من خلاله مشاكل الزنوج الشماليين كأناس واعين يتحسسون الالم وليس كقطيع متخلف من البشر كما درج المجتمع الامريكي الابيض على النظر اليهم . ويرى تيرنر انه مع ظهور مسرحية لانغستون هيوز (سماوي ببساطة) عام ١٩٥٧ يكون

المسرح الامريكي الاسود قد تجاوز مرحلة المشاكلة ، وأخذ في تأصيل الجذور الواقعية بهذا المسرح .

ومن الظواهر المسرحية الهامة التي يتحدث عنها الكتاب ظهور المسرح /المنبثق/ مع الذي ترافق مع قيام كاتب المأساة الزنجي جيمز هبوليت بتشييد مسرح /غروف/ الافريقي في مدينة نيويورك . ويعتبر المسرح المنبثق علامة هامة في النهضة المسرحية السوداء اذ وفر مكانا يمكن للكتاب المسرحيين السود من خلاله تقديم اعمال الدراما المعبرة عن معاناة الزنجي الخاصة،لكن الشرطة الامريكية كانت تقوم باستمرار باعتقال الممثلين اثناء اداء العمل المسرحي لكنهم ما ان كانوا يخرجون حتى يعودون مباشرة الى متابعة تقديم العمل المسرحي . ويشير افتن متشل ، في تاريخه للنهضة المسرحية السوداء الى ان عام ١٩١٠ يمثل مرحلة النشاط المسرحي الذي تركز بصورة اساسية في منطقة هارلم في حين ان عقد الثلاثينات شهد ظهور عدد كبير من الكتاب الامريكيين الزنوج الذين اسهموا في اغناء النهضة المسرحية السوداء وتحقيق المزيد من التقدم والتطور فيها .

بعد استعراض ملامح تطور ونضوج العمل المسرحي الاسود ينتقل الكاتب الزنجي جوردان . ميلر للحديث عن اهم الاسماء الزنجية التي استطاعت ان تحقق اضافات هامة وغنية من خلال اعمالها المسرحية الجادة . ويعتبر المسرحي لورين هانزبري اهم هذه الاسماء حيث يحاول جوردان ميلر كمدخل لمناقشة اعمال بري المسرحية ان يحدد مفهوم الفن الاسود والخلفية العريضة التي يستند اليها هذا الفن في تحديد هويته وسمته الانسانية الفاعلة فيقول (ان الفن الاسود هو الاخ الروحي والجمالي لمفهوم القوة السوداء . ولانه هكذا فانه يأتي ليتكلم مباشرة عن حاجات امريكا السوداء وتطلعاتها) .

ان هذا التعريف الواضح والمحدد لخصوصية المسرح الامريكي الاسود وعلاقته بالمفهوم الخاص للقيم الروحية والجمالية التي يعبر عنها تجعل الدراما السوداء تتجاوز مرحلة الاحتجاج على الواقع الى مرحلة الواقعية السياسية . ويشير ميلر في بحثه الى الدور الكبير الذي لعبه مسرح /هيئة الفندق السوداء/ الذي قام كل من المسرحيين جونز وباترسون ووليم باترسون وريد وجوني وعدد آخر غيرهم بانشائه لكن هيئة الفندق السوداء تعرضت الى مضايقات مستمرة من قبل السلطة الرسمية لمدينة نيويورك نظرا للاستقطاب الواسع الذي استطاع ان يحققه للجمهور الامريكي الاسود اضافة الى تأثيره الفاعل والاعمال الناضجة التي كان يقدمها . ولعل اهم من يمثل المسرح الامريكي الاسود في مراحله الاكثر نضوجا واكتمالا هو الكاتب المسرحي /جونز/ اكثر المسرحيين السود ثورية ففي اعماله المتميزة التي كتبها نجد دائما (غنائية عميقة ونظرة روحية) جعلت منه شاعرا اكثر مما هو كاتب مسرحي .

ان الملاحظة الهامة الاولى التي يمكن ان توجه الى هذا الكتاب هي غياب النماذج القصصية والشعرية التي كان يمكن للكتاب ان يضمها فالمجلد الاول كتب تحت عنوان كلمة / قصص/ في حين كتبت على المجلد الثاني كلمة / الشعر والمسرح/ لكن لم نجد نصا شعريا او قصة واحدة يمكن اعتبارها نموذجا يساعد في فهم طبيعة الكتابة السوداء ، ويجعلنا نتذوق هذه الكتابة ونتحسس القيم الجمالية والانسانية العامة التي تحملها .

لقد كان من الممكن استبدال العبارتين بعبارة دراسات في القصة والشعر والمسرح لان الكتاب بمجلديه في حقيقة الامر هو دراسات بانورامية شاملة في القصة والرواية والشعر والمسرح الامريكي الاسود وهي تقدم لنا معلومات شاملة ودقيقة عن تاريخ الكتابة السوداء واهم الكتاب الامريكيين السود والاتجاهات التي مثلوها والقيم التي طرحوها اضافة الى دراسة تطور الوعي الخاص للكاتب الاسود وتأثيره على تحديد طبيعة هذا الادب وتوجيهاته الخاصة والعامة .

اما الملاحظة الثانية على هذا الكتاب فهي تقارب الاراء النقدية في دراسة تاريخ الفنون الادبية الزنجية وتحديد المراحل الزمنية والابداعية التي مثلتها واستطاعت أن تكون تحولا هاما في تاريخ هذه الفنون وهـذا ما يمنح القارىء صورة واضحة ، ويجعله يحس بالتوازن النقدي بدل أن يحس بتضارب الاراء والطروحات النقدية خاصة وان الكتاب بمجلديه عبارة عن دراسات مختلفة كتبها عدد واسع من النقاد والادباء الامريكيين السود وقام كريستوفر بيغربي بجمعها وتحريرها ونشرها في مجلدين اثنين خص الاول بالقصة والرواية في حين خص المجلد الثاني بالشـعر والمسرح . ويمكن اعتبار الكثير من الدراسات التي تضمنها الكتـاب بجزئيه دراسات عامة تصلح لان تخرج على التقسيم الذي حدده المحرر للكتاب مثل المقدمة التي كتبها بيغربي نفسه والدراسة الاولى التـي تضمنها المجلـد الثاني .

ان كتاب /الكاتب الامريكي الاسود/ يعتبر اضافة قيمة وهامة جدا تعرض لتاريخ الادب الامريكي الاسود والقيم التي جسدها والاسمـاء التي مثلها اضافة الى استعراض تطور مفاهيم هذا الادب واشكالاتـه النقدية والذاتية خاصة وان الادب الامريكي الاسود ولد وهو تتنازعه مؤثرات عدة تتحدد في الجذور الافريقية من جهة ومؤثرات الواقـع الامريكي الذي يعيش ضمنه من جهة اخرى الى أن يصل الى بلـورة ملامحه وقيمه ورؤيته المستقلة والمعبرة عن روح ووجدان الرجـل الاسود ومعاناته الانسانية الصعبة في ظل ظروف القهر والتمييز والاستغلال الذي يمارسه الرجل الامريكي الابيض بحق الرجل الزنجي الاسـود . وهنا تكمن قيمة الكتاب الخاصة التي تكشف لنا عن الصورة المضيئة للابداع الاسود الذي يجعل منهم بشرا يتمتعون بقدرات خلاقة علـى الابداع والعطاء المثمر عكس ما تحاول المؤسسة الرسمية ان تؤكد عليه من أن الزنجي خلق من اجل العمل في خدمة الرجل الابيض لتدني قدراته العقلية والروحية والابداعية .

● ●